ثابت عيد

الحيلة في التراث العربي

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعه الثانيه

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م

١-تمهيد

ارتبط لفظ الحيل فى التراث العربى بالفقه الإسلامى عامة ، والحنفى منه خاصة . هذا على الرغم من أن الحيل لا تمثل إلا جزءا من الكل فى الفقه الإسلامى . بل إن هذا الجزء متنازع عليه بين فقهاء المذاهب الأربعة ، مختلف عليه بينهم، فقد أسسه صاحب المذهب العقلانى من فقهاء الإسلام ، وسار العقلانيون من بعده على نهجه ، واتبعوا طريقته ، وسارع أصحاب المذاهب الأخرى بذم الحيل ، وتحريم استعمالها . بل إنهم حاربوها ، وبعد ذلك حاول بعضهم مجاراة التيار العقلانى فى الفقه ، فشرعوا يقلدون العقلانيين من الفقهاء ، ويضعون المؤلفات فى الحيل الفقهية ، ولكن أعمالهم كانت تعكس جمود عقولهم ، وغث تفكيرهم ، وثقل ظلهم ، وبطء خاطرهم . وهكذا ظلت كتابات العقلانيين من الفقهاء فى باب الحيل هى الكتابات الأصيلة ، والأعمال الرائدة (١) .

إن ارتباط لفظ الحيل فى التراث العربى بالفقه والقضاء ليس له ما يبرره سوى جهلنا بتراثنا ، وعدم إلمامنا بالجانب العلمى منه . ذلك أن الحيل ، على الرغم من ارتباطها بالفقه، واشتهارها عنه ، لا تمثل إلا جزءا بسيطا من علم الفقه ، فى حين أن لفظ الحيل كان يطلق قديما على علم مستقل بذاته يعادل فى عصرنا هذا علم الهندسة الميكانيكية والتجهيزات

---

(١) أنظر المقدمة الألمانية التى كتبها يوسف شاخت لـ « كتاب الحيل فى الفقه » للقزوينى تحقيق شاخت ، هانوفر ١٩٢٤ .

الهيدروليكية [١] . فقد قسم الخوارزمى العلوم إلى : الفلسفة والعلم الإلهى ، والمنطق ، والطب ، والارثماطيقى، والهندسة، وعلم النجوم ، والحيل ، والموسيقى ، والكيمياء. وذكر بعد ذلك أن علم الحيل ينقسم إلى فرعين : الأول جر الاثقال بالقوة اليسيرة وآلاته ، والثانى حيل حركات الماء وصنعة الأوانى العجيبة وما يتصل بها من صنعة الآلات المتحركة بذاتها [٢] .

الحيل إذن لا تقتصر على الفقه الإسلامى فحسب ، بل هى علم قائم بذاته يدخل فى نطاق الهندسة الميكانيكية والتحكم الآلى . وفضلا عن ذلك اشتهر العرب قديما بحيلهم فى السياسة والطب . ففى مجال السياسة يذهب بعض النقاد إلي مقارنة كتاب « سراج الملوك » للطرطوشى بكتاب « الأمير » لميكيافيلى . أما من ناحية الحيل الطبية ، فقد كتب عنها كبار الأطباء العرب مثل الرازى وابن سينا والرهاوى . ولا يقتصر مجال الحيلة على الفقه والهندسة والسياسة والطب فحسب ، بل يمتد ليشمل جميع المعارف ، وكل الصنائع . وقد عدّد صاحب كتاب « السياسة والحيلة عند العرب » فنون الحيل ، وطبقات مستخدميها ، بداية من البارئ تعالى، وانتهاء

---

(١) أنظر أحمد يوسف الحسن،مقدمة «كتاب الحيل» لبنى موسى،تحقيق احمد يوسف الحسن،جامعة حلب ١٩٨١ .ص ٥٦ ومابعدها.

(٢) نفسه ، ص ٥٦ من المقدمة . أنظر كذلك : الخوارزمى ، «مفاتيح العلوم» القاهرة ١٣٤٢ هـ ، ص ١٤١ ، عمر فروخ « تاريخ العلوم عند العرب » ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ٢١٦ وما بعدها .

بطبقات الحيوان . ومن الأمثال الطريفة فى هذا الباب : « رأس لا حيلة فيه ، قرعة خير منه »[1] .

إن دافعى الأول لكتابة هذه السطور هو الحث على استخدام الحيلة ، وإعمال الفكر ، سواء على المستوى الشخصى ، أو المستوى الحكومى فى عالمنا العربى ، وذلك لإيجاد حلول لما نواجهه اليوم من مشاكل عضال ، وتحديات جسام . فالاطلاع على كتب الحيل فى التراث العربى قد يلهمنا حلولا لمشاكلنا ، ويعيننا على الخروج من أزماتنا . وما أحوجنا إلى الحيلة اليوم لزراعة الصحراء ، ووقف الاستيراد ، والاعتماء على النفس ، وتأسيس صناعة متقدمة ، والحد من الفساد ، واستئصال الجهل ، وتحطيم الجمود .

* * *

٢ - فى الحث على الحيل واستعمالها

سمحت لنفسى أن استعير هذا العنوان من كتاب: «السياسة والحيلة عند العرب » وهو عنوان الباب الثانى من هذا الكتاب ، وذلك لتوضيح محاسن الحيل ، والفرق بينها وبين خدع المحتالين ، وكيف امتدحها القدماء ، وأثنوا عليها . فليس المقصود بالحيل هنا تلك الوسائل الملتوية ، والطرق الخبيثة التى يتبعها الدجالون في نهب أموال الناس ، وتزوير

---

(١) أنظر كتاب « السياسة والحيلة عند العر ب » ، وهو لمؤلف مجهول ، تحقيق رنيه خوام ، لندن ١٩٨٨ ، ص ٢٥ .

حقائق الأمور ، بل المقصود من لفظ الحيل فى هذا السياق هو إعمال الفكر ، وتشغيل العقل ، واستخدام الحكمة ، للخروج من مازق وقعنا فيه ، أو لحل مشكلة تواجهنا . يقول المستشرق الفرنسى رنيه خوام ، محقق كتاب « السياسة والحيلة عند العرب » : « وكلمة حيلة لا تعنى كما يتبادر إلي الذهن انها تنكب طرق الكذب والنفاق لخداع خصم ما ، بل علي العكس من ذلك ، لأن كلمة حيلة فى معناها الأصلى تدل على توفير الجهد والمشاق على الإنسان ، وهذا يرتكز إلي قواعد علمية تكون بمتناول مخترع حاذق ، وعالم عامل . . . »[١] .

أما صاحب كتاب « السياسة والحيلة عند العرب » فهو يثنى على الحيلة ويدعو إلي استعمالها . فالحيلة هى « ثمرة العقل ، ومستخرجة بقوانينه » وهى أكثر الوسائل حذقا ومهارة للوصول إلي الأهداف والغايات [٢] . ومن الحكم المأثورة عند الفرس : «أضعف الحيلة خير من أقوى الشدة ، وأقل التانى خير من أكثر العجلة » [٣] ، ويشير صاحب كتاب «الإشارة إلى أدب الإمارة » إلى أهمية معرفة الحيلة ، والعمل بها ، حيث يقول : « يجب أن تعرف الحيلة ، لتغمل بها ، ولتحترز منها » [٤] . وفى «الحكمة الخالدة » لابن

---

(١) نفسه ، ص : ٦ . (٢) نفسه ، ص : ٢٣ .

(٣) الماوردى ، «تسهيل النظر وتعجيل الظفر فى أخلاق الملك وسياسة الملك » ، تحقيق رضوان السيد ، بيروت ١٩٨٧ ، ص : ٢٥٦ .

(٤) المرادى ، « الإشارة إلى أدب الإمارة » ، تحقيق رضوان السيد ، بيروت ١٩٨١ ، ص : ٢٢٩ .

مسكويه : « الحيلة خير من الشدة ، والتأنى أفضل من العجلة، والجهل فى الحرب خير من العقل ، والفكر هناك فى العاقبة مادة الجزع ... أضعف الحيلة أنفع من أقوى الشدة ، وأقل التأنى أجدى من أكثر العجلة ...» (١) . ويقول الماوردى في «تسهيل النظر وتعجيل الظفر فى أخلاق المَلك وسياسة المُلك » : « ليستعمل الملك مداهنة الأعداء قبل مكاشفتهم ، وليجعل محاربتهم آخر مكايده ، فإنه ينفق فى المكايد من الأموال ، وينفق فى المحاربة من النفوس ، ولذلك قيل : أوهن الأعداء كيدا أظهرهم بعداوته » (٢) .

ويفرق الطرطوشى في كتابه « سراج الملوك » بين الدهاء والمكر من ناحية ، والحيلة من ناحية أخرى . فالدهاء والمكر مذمومان ، فى حين أن الحيلة مستحسنة ، مرغوب فيها ، ثم يقول بعد ذلك : « فنحن وإن كنا نرغب عن الدهاء والمكر ، فإنا نرغب فى الحيلة ، ونوصى بها ، والاتساع فى الحيلة مما تواصى به العقلاء قديما وحديثا ، وليس شئ من أمور الدنيا لطالب الرفعة ، وباغى الوسيلة و مرتاد أى أمر كان ، دق أوجل، خير من الحيلة . وأضعف الحيلة أنفع من كثير الشدة ، وقالت الحكماء :ملاك العقل الحيلة . والتأنى للسبب الضعيف

---

(١) ابن مسكويه ، « الحكمة الخالدة » تحقيق عبد الرحمن بدوى، القاهرة ١٩٥٢ ، ص : ٩ .

(٢) الماوردى ، « تسهيل النظر وتعجيل الظفر » ، ص : ٢٨٠ .

والقوى من الامور »[1] ، وكتب معاوية إلى مروان لما ورد عليه قتل عثمان يقول : «إذا قرأت كتابى هذا ، فكن كالفهد لا يصطاد إلا غيلة (خديعة) ، ولا يباعد إلا عن حيلة ، وكالثعلب لا يغلب إلا روغانا ،واخف نفسك عنهم كما أخفى الغراب سناده ، والقنفد رأسه عند لمس الأكف ، وامنهم نفسك أمان من يايس القوم من نصره ، وابحث عن اخبارهم بحث الدجاجة »[2] .

أما فى مجال الطب قديما،فقد احتلَّت الحيلة منزلة خاصة،حيث استخدمها الأطباء فى معالجة الامراض،وتسكين الآلام ،ويكفى ان نشير إلى ان جالينوس قد خص هذا الموضوع بكتاب مستقل أسماه:« حيلة البرء»[3].ويقول الرهاوى فى « أدب الطبيب » إن الحيل هى« نتائج العقول،وثمرات الفضائل التى يستحق أهلها المدح والتشريف »[4].

* * *

---

(١) الطرطوشى ، « سراج الملوك » ، تحقيق جعفر البياتى ، لندن ١٩٩٠ ، ص ٢١٦ وما بعدها .

(٢) « السياسة والحيلة عند العرب » ، ص : ٢٤ .

(٣) أنظر ابن النديم ، « الفهرست » ، طبعة دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٨ ، ص : ٤٠٣ .

(٤) الرهاوى ، « أدب الطبيب » ، مخطوطة طبية من القرن الثالث الهجرى ، نشرها فؤاد سزكين بالتصوير ، فرانكفورت ١٩٨٥ ، ص:٢٠٢ .

٣ - فى المعنى اللغوى للحيلة

جاء فى «لسان العرب» أن معنى الحول : الحيلة والقوة[١]. والواقع أن هذا التقارب بين القوة والحيلة ليس مستغربا ، فالمتأمل لمحاسن الحيل ، والمتفحص لفوائدها ، لا يسعه إلا اعتبارها نوعا من أنواع القوة ، وفنا من فنون المعاملة. قال ابن سيده : « الحَول والحَيل والحِول والحيلة والحويل والمحالة والاحتيال والتحول والتحيل ، كل ذلك : الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف »[٢]. والحيل والحِوَل : جمع حيلة ، وحُولَة وحُوّل وحَوالى وحُوالى وحَوَلولَ : محتال شديد الاحتيال . قال ابن الاعرابى : « الحُوّل والحُوّل : الدواهى ... »[٣]. وقال الأصمعى : « يقال جاء بأمر حُولة من الحول ، أى بأمر منكر عجيب ، ويقال للرجل الداهية : إنه لحولة من الحول ، أى داهية من الدواهى ... »[٤]. ويقال : هو أحول منك وأحيل، أى أكثر حيلة . ويقال رجل حوالى للجيد الرأى ذى الحيلة . ويقال هو أحول من ذئب ، من الحيلة ، وهو أحيل من أبى براقش : وهو طائر يتلون ألوانا[٥].

* * *

---

(١) ابن منظور ، « لسان العرب » ، تحقيق عبد الله على الكبير ، ومحمد أحمد حسب الله ، وهاشم محمد الشاذلى ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ ، ص : ١٠٥٥.

(٢) نفسه ، ص : ١٠٥٥ .

(٣) نفسه ، ص : ١٠٥٥ .

(٤) نفسه ، ص : ١٠٥٥ .

(٥) نفسه ، ص : ١٠٥٥ .

٤- الحيلة بين الإنسان والحيوان

إذا كانت الحيل هى « نتائج العقول ، وثمرات الفضائل التى يستحق أهلها المدح والتشريف » . وإذا كان استخدام لطيف الحيل واجبا على كل إنسان عاقل ، فما الدور الذى تلعبه الحيلة فى حياة الحيوان ؟ قبل أن نحاول الإجابة على هذا السؤال ، نود أن نذكر قولا مأثورا ورد فى كتاب « السياسة والحيلة عند العرب » عن صفات القائد المثالى جاء فى هذا الخبر أن عظماء الترك كانوا يقولون : ينبغى للقائد أن يكون فيه من أخلاق البهائم ما يلى من الصفات : « شجاعة الديك، وجرأة الأسد ، وحملة الخنزير وحراسة الكركى ، وحذر الغراب ، وغارة الذئب ، وروغان الثعلب ، وصبر الجمل»[1] .والواقع أن الثعالب قد اشتهر من بين الحيوانات باستعماله للحيلة والمراوغة . بيد أن استخدام الحيلة لا يقتصر على الثعلب وحده ، فنحن نجد أن الكركى « إذا خاف على نفسه من النوم ، يقف على فرد رجل » [2] حتى لا يخلد إلي النوم ، فيهلك .

أما الذئب ، فقد ذكر الدميرى عنه فى « حياة الحيوان الكبرى » أمورا عجيبة ، وطباعا طريفة ، فقال عنه ضمن ما قال : « ... ومن عجيب أمره أنه ينام بإحدى مقلتيه ،

---

(١) أنظر « السياسة والحيلة عند العرب » ، ص : ٢٥ . انظر أيضا الطرطوشى ، « سراج الملوك » ، ص : ٥٠٠ .

(٢) « السياسة والحيلة عند العرب » ، ص : ٢٣ .

والأخرى يقظى ، حتى تكتفى العين النائمة من النوم ، فيفتحها وينام بالأخرى ، ليحترس باليقظى ، ويستريح بالنائمة»[1]. ونظرا لارتباط الذئب بالحيلة ،فقد أطلقت العرب عليه مسميات كثيرة ، وأوصافًا غريبة « فقالوا : أغدر من ذئب ، وأختل ، وأخبث ، وأخون ، وأجول ، وأعتى ، وأعوى ، وأظلم ، وأجرأ ، وأكسب ، وأجوع ، وأنشط ، وأوقح ، وأجسر ، وأيقظ ... من الذئب ... وقالوا أخف رأسا من الذئب لأنه ينام بإحدى مقلتيه ، كما تقدم »[2].

أما الثعلب ، فهو كثير المكر ، دائم الروغان . وقد حكى لى أحد الأصدقاء عنه العجب العجاب ، فذكر أن الفلاحين عندما يقبضون علي الثعلب أثناء سرقته الدجاج والطيور ليلا، فإنه يتماوت ، لعنه الله ، بل إنه يمتلك مقدرة عجيبة على إيقاف نبض قلبه ! فلا يشك أكثر الناس حذرا منه ، وارتيابا في أمره أن الله قد توفاه ، وأنه قد صار من أهل الآخرة، وعندئذ يقومون بإلقاء جثته فى الخلاء ،ولكنهم ما يكادون يفعلون ذلك ، حتى يتحول المتماوت إلي حى يرزق ، وتعود روحه إليه ، ويسترجع نبضه ، فيطلق ساقيه للريح هربا من الموت والهلاك . وفى «كليلة ودمنة » وردت حكاية الحمامة والثعلب ومالك الحزين ، حيث احتال الثعلب حيلة

---

(١) الدميرى ، «حياة الحيوان الكبرى » ، بيروت د.ت. ، المجلد الأول ، ص ٣٦٠.

(٢) نفسه ، ص ٣٦٣.

ماكرة،وجعل يلاطف مالك الحزين ويداهنه ، حتي تمكن منه، فدق عنقه والتهمه [١] . وجاء في «حياة الحيوان الكبرى» عن مكر الثعلب : « ... ومن حيلته فى طلب الرزق أن يتماوت ، وينفخ بطنه ، ويرفع قوائمه ، حتى يظن أنه مات ، فإذا قرب منه حيوان ، وثب عليه وصاده » [٢]. وذكر الجاحظ أن الثعلب يستخدم (برازه) كسلاح فعال ،وذلك بسبب نتانته، سوء رائحته [٣].

وعلى الرغم مما ذكرناه من حيلة الثعلب وروغانه ، فينبغى الا ننظر إليه إلا فى نطاق التسلسل الهرمى لطبقات الحيوان الذى أراده البارئ لمخلوقاته ، وقدره لها . يقول الجاحظ فى «كتاب الحيوان» : « ومن العجب فى قسمة الأرزاق أن الذئب يصيد الثعلب فيأكله ، ويصيد الثعلب القنفد فيأكله ، ويريغ القنفد الأفعى فيأكلها ، وكذلك صنيعه في الحيات ما لم تعظم الحية ، والحية تصيد العصفور فتأكله ، والعصفور يصيد الجراد فيأكله ، والجراد يلتمس فراخ الزنابير وكل شئ يكون أفحوصه على المستوى ، والزنبور يصيد النحلة فيأكلها، والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها، والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها » [٤].

---

(١) بيدبا الفيلسوف الهندى ، « كليلة ودمنة » ، ترجمة ابن المقفع ، بيروت د.ت.، ص : ١٥٤ وما بعدها .

(٢) «حياة الحيوان الكبرى » ، م ١ ، ص : ١٧٥ .

(٣) الجاحظ « كتاب الحيوان » تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٥ ، م٦ ، ص: ٣١٢ . أنظر أيضا الدميرى ، م ١ ، ص ١٧٥ .

(٤) الجاحظ « الحيوان » . م ٦ ، ص : ٣١٣ . الدميرى ، م ١ ، ص: ١٧٥ .

إذا عدنا الآن إلى سؤالنا السابق عن الدور الذى تلعبه الحيلة فى حياة الحيوان ، فينبغى أن نوافق صاحب كتاب «السياسة والحيلة عند العرب » فى رأيه بأن الإنسان يعتمد على عقله للتوصل إلي الحيل ، أما الحيوان فالحيلة تقع له إلهاما[1] . فالإنسان يستطيع بعقله أن يصل إلى حيلة تخرجه من معظم ما يقع فيه من المآزق ، وهو يفعل ذلك لا محالة فى حياته اليومية دون أن يشعر أحيانا ، أما الحيوان ، فاستخدامه للحيلة محدود ويقتصر على ما خلقه الله فى طبعه من العادات .

يقول صاحب كتاب « السياسة والحيلة عند العرب » : «إعلم ، أيها السيد السعيد ، أن الحيلة لما كانت ثمرة العقل ، ومستخرجة بقوانينه ، طرق فى إستخراجها غوامض العلوم ، ومحاسن الفنون المختلفة الأصول والمنافع ،وجب أن تكون للإنسان خاصة دون غيره من الحيوان . فإن قال قائل إنا نرى كثيرا من الحيوان يعمل من الحيل ما يفتح له منها فوائد جمة... (...) قلنا : فهذه ليست معدودة فى الحيل لغزارة عقلها ،وإنما ذلك إلهام من الله لصلاح أحوالها ، ولطف من الله بها »[2] . ولما كان ذلك كذلك ، فإنه «ينبغى للعاقل أن يعرف طرق الحيل ، وكيف يستعملها ،ويعلم من أين دخلت عليه حيلة من الحيل ، وكيف الخروج »[1] .

* * *

---

(١) « السياسة والحيلة عند العرب » ، ص : ٢٣ .

(٢) نفسه ، ص : ٢٣ .   (٣) نفسه ، ص : ٢٣ .

٥- الحكمة الإلهية واستخدام الحيل

من أسماء الله الحسنى «الحكيم» . والحكمة الإلهية تتجلى فى أجمل صورها أحيانا عندما تأخذ شكل الحيلة اللطيفة ، والدرس المفيد . والحيلة تحتاج إلى مكر وذكاء ، وقد وصف الله نفسه بـ « المكر » فى القرآن ، حيث يقول فى كتابه المبين : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمكُرُ اللهُ ، واللهُ خَيرُ الماكِرينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، وقد أساء المستشرق جولدتسيهر فهم هذه الآية بأفقه المحدود ، فجعل يطعن في القرآن ، ويسخر من المسلمين فى كتابه « محاضرات فى الإسلام »[١] ، ولكن ماذا عسانا أن نقول في مستشرق غبى اشتهر بعدائه الشديد للإسلام ؟ فقد غاب عن صاحبنا هذا أن « الحيلة هى أكثر الوسائل حذقا ومهارة للوصول إلى الأهداف والغايات ... والله تعالى يفضل الإقناع والتعليم ، والحيلة هى الوسيلة الفضلى ، فهى تحتوى على قدر أقل من الإكراه ، وعلى درجة ليست قليلة من الفعالية »[٢].

---

(١) انظر : Ignaz Goldziher, Vorlesungen ueber den Islam, Heidelberg 1910. S. 23 f.

الترجمة العربية : ايجناتس جولدتسيهر ، «العقيدة والشريعة فى الإسلام» ترجمة محمد يوسف موسى ، وعبد العزيز عبد الحق ، وعلى حسن عبد القادر ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص : ٢٩ .

(٢) «السياسة والحيلة عند العرب » ، ص : ٧ .

وقد ورد في كتاب « السياسة والحيلة عند العرب » ثماني عشرة حيلة ، رواها المؤلف لإثبات استحسان البارئ تعالى للحيلة ، واستخدامه لها في تلقين عباده ، وتعليم رسله وأنبيائه ، بيد أن رائحة الاسرائيليات تفوح من بعضها بشدة واضحة ، وخاصة في الروايات المنقولة عن أنبياء اليهود . وعلى الرغم من ذلك ، فإن بعض هذه القصص تحمل في ثناياها الكثير من الحكم الطريفة ، والمعاني الدقيقة ، بصرف النظر عن كونها صحيحة ، أو موضوعة .

ونكتفي في هذا السياق بذكر قصة موت سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهي القصة التي أوردها الثعالبي في كتابه « الكشف والبيان في تفسير القرآن » ، حيث يقول : «إن الله تعالى كان قد وعد إبراهيم أن لا يقبض روحه إلا إذا طلب ذلك منه ، واشتهى الموت . فلما قرب أجل إبراهيم ، وأرد الله عز وجل قبضه ، أرسل إليه ملكا في صورة شيخ هرم قد بطلت أكثر أعضائه . فوقف بباب إبراهيم ، وقال له : يا إبراهيم . أريد شيئا آكل . فتعجب إبراهيم منه ، وقال : موت هذا خير له من هذه الحياة . وكان إبراهيم لا يزال عنده طعام معد للأضياف . فأحضر للشيخ قصعة من الثريد واللحم . فجلس الشيخ يأكل ، وهو يخرج من تحته ، ويبلع اللقمة بالجهد والعذاب ، ويأخذ اللقمة ، فتقع من يده ، فيقول : يا إبراهيم ، أطعمني . فيرفع إبراهيم اللقمة بيده إلى فم الشيخ ، فتجرى على لحيته وصدره . فقال له إبراهيم : يا شيخ ، كم

لك من العمر ؟ فذكر الشيخ سنين فوق سنى إبراهيم بشئ يسير. فقال إبراهيم عليه السلام : اللهم اقبضنى قبل أن أصل إلى هذا العمر ، وهذه الحالة . فما استتم كلامه حتي قبضه الله عز وجل » [١].

وسواء أصحت هذه الرواية أم لا ، فهى تتفق مع آراء إخوان الصفاء ، والكندى ، وابن مسكويه في الموت الطبيعى للإنسان ، وحكمة توقيته ، والعوارض التى تسبقه . يقول ابن مسكويه فى كتابه « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » متحدثا عن الشيخوخة ومظاهرها : « . . .إن الإنسان إذا أحب طول الحياة ، فقد أحب لا محالة الهرم ، واستشعره استشعار ما لابد منه .ومع الهرم يحدث نقصان الحرارة الغريزية ، والرطوبة الأصلية التابعة لها ، وغلبة ضديهما من البرد واليبس،وضعف الأعضاء الأصلية كلها ، ويتبع ذلك قلة الحركة ، وبطلان النشاط ، وضعف آلات الهضم ، وسقوط آلات الطحن، ونقصان القوى المدبرة للحياة ، أعنى القوة الجاذبة ، والقوة الممسكة ، والهاضمة ، والدافعة ، وسائر ما يتبعها من مواد الحياة » [٢].

وإذا عدنا إلى القصة السالفة الذكر عن موت سيدنا إبراهيم ، للاحظنا اجتماع شيئين متناقضين ، هما حب الحياة وحتمية الموت . ومن خير ما قرأته من أوصاف لمراحل عمر

---

(١) نفسه ص : ٢٧ .

(٢) ابن مسكويه ، « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » ، تحقيق وشرح ابن الخطيب ، القاهرة ١٣٩٨هـ ، ص : ٢١٦ .

الإنسان القول بأن الله قد جعل الإنسان يولد «مبرمجا» ، وهذا يشير إلى حتمية المرور بمحطات الحياة المختلفة من طفولة وشباب إلى كهولة وشيخوخة ، ثم موت وحساب . ولكن الإنسان يجزع بطبيعته من مجرد ذكر الموت ، ويضيق صدره من سماع أخبار الموتى . يحكى ابن قتيبة فى « عيون الأخبار» عن الأصمعى أنه قال : « بلغنى عن شيخ جزع علي ميت جزعا شديدا ، فقيل له فى ذلك ، فقال : نحن قوم لم نتعود الموت » [١] . والواقع أن الإنسان يخشى الموت ويرهبه علي الرغم من أن الموت ينبغى أن يكون أكبر موعظة للمرء فى حياته . وقد نقل الطرطوشى فى « سراج الملوك» ما قيل فى موت الاسكندر ،حيث يقول : «ولما مات الاسكندر ، قال أرسطاطاليس : أيها الملك ، لقد حركتنا بسكونك . وقال بعض الحكماء من أصحابه : كان الملك أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس » [٢] .

وفضلا عن هذه الرواية الخاصة بموت إبراهيم عليه السلام، ينبغى كذلك أن نشير إلى الحيلة التى علمها البارئ تعالى نبيه أيوب عليه السلام ، حتى يتحلل من يمينه بغير حنث . « فقد حلف ليضربن امرأته مائة ضربة ، ثم عز عليه أن يفعل هذا بما احسنت إليه فى عشرتها ،وأخلصت له فى

---

(١) ابن قتيبة ، «عيون الأخبار» ، القاهرة ١٩٢٥ ، م ١ ، ج ٢ ، ص : ٥٣ .

(٢) «سراج الملوك» ، ص : ٧٥ .

خدمتها، فعلمه الله أن يضربها ضربة واحدة بضغث فيه مائة عود، قال تعالى : ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ، فَاضْرِبْ بِهِ ، وَلَا تَحْنَثْ﴾ (سورة ص : ٤٤) »[١].

* * *

٦ - من حيل الأنبياء

أورد صاحب كتاب « السياسة والحيلة عند العرب » حيلة طريفة لرسول الله ﷺ، إلا أنها قد تكون موضوعة من قبل أصحاب أبى حنيفة المتأخرين ، وذلك للتشابه الكبير بينها وبين حيل أبى حنيفة وأصحابه . تقول هذه الرواية: «مر به (أى برسول الله) رجل هارب من قومه ، وناداه : يا محمد، أغثنى ، فإن خلفى من يطلب دمى . فقال النبى ﷺ : أمض لوجهك ، لأصد عنك الطلب . فمضى الرجل ، وقام النبى ﷺ ، وجلس موضعا آخر غير موضعه الأول . فأتى القوم يتعادون ، وقالوا : يا محمد جاز بك شخص نعته وصفته كذا؟ فقال النبى ﷺ : والذى نفسى بيده منذ حليت موضعى هذا ما جاز عليّ أحد . فصدقه القوم ، لما يعرفون من صدقه ، وطلبوا غير الطريق . ونجا الرجل بنفسه ». [٢] ولا نريد الخوض في كون هذه الرواية صحيحة ، أو من الاسرائيليات، أو من وضع أصحاب أبى حنيفة المتأخرين ، لأن

---

(١) على حسب الله ، «أصول التشريع الإسلامى » ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص : ٣٢٢ وما بعدها .

(٢) ليس من اليقين ورود هذه الحيلة عنه ﷺ وقد تنسب لأصحاب ابى حنيفة المتاخرين.

مسألة الوضع والنحل فى الكتابات العربية القديمة كانت وما زالت تعتبر من كبريات المشاكل المتنازع عليها فى التراث العربى ، ولكننا نكتفى بالإشارة إلي مدلول هذه الرواية. فمن الواضح أن هذه الحيلة تتضمن ذم الكذب ، والحرص علي الصدق في القول ، والأمانة فى السلوك . ولولا ذلك ، لكان يمكن أن تنسب هذه الرواية إلي شخص آخر يظل قابعا في مكانه ، ويحلف كذبا أنه لم يرَ أحدا يمر من أمامه . والحل الذى تقدمه هذه الحيلة يقوم على تغيير وضع سابق شاهد فيه الرسول ﷺ الشخص الهارب ، إلي وضع جديد ، وموضع آخر يجلس فيه الرسول ﷺ ويشير إليه فى يمينه للمتتبعين للهارب. وسوف نرى فى السطور التالية مدى تشابه هذه الحيلة بحيل أبى حنيفة وأصحابه .

وقد أورد صاحب كتاب « السياسة والحيلة عند العرب» بعض الروايات المشهورة عن رسول الله ﷺ فى سياق حديثه عن حيل الرسول ﷺ ، إلا أن هذه الروايات هي ملح (جمع ملحة : وهي النكتة) أكثر منها حيل ،وقد روى الغزالى الكثير منها فى كتابه «إحياء علوم الدين» [1]. من ذلك أن امرأة جاءت إلي رسول الله ﷺ، «فقالت له: إن بعلى يدعوك. قال: من بعلك؟ قالت: فلان. قال: الذى فى عينه بياض .

---

(١) الغزالى ، «إحياء علوم الدين » ، القاهرة د. ت . ، م٣ ، ص: ١٢٧ وما بعدها.

قالت : والله ما في عينه بياض . قال : بلى والله في عينه بياض. فأتت بعلها وجعلت تنظر في عينه . فقال لها الرجل : ما بالك ؟ قالت : إن النبي ﷺ ذكر أن في عينك بياض . فضحك الرجل وقال : أليس فيها بياض وسواد» [1].

ومن الحيل الأخرى التي حكاها الأستاذ علي حسب الله في كتابه « أصول التشريع الإسلامي » عن رسول الله ﷺ أن : «وليدة من بني ساعدة حملت من زنا ، فقيل لها : ممن حملت ؟ قالت : من فلان المقعد (ذي العاهة) . فسئل هذا فقال : صدقت . فرفع إلي رسول الله ﷺ ، فقال : خذوا عثكولا (عنقودا) فيه مائة شمراخ (غصن) ، فاضربوه به ضربة واحدة ففعلوا » [2] . والضرب بعثكول فيه مائة شمراخ مرة واحدة يعادل مائة جلدة .

وهناك كذلك حيلة الرسول ﷺ عندما هجر إلى المدينة، وأمر علي بن أبي طالب أن ينام موضعه . « فلما كان نصف الليل ، جاءه المشركون ، وأحاطوا به ، وهموا أن يبطشوا به ظنا أنه النبي عليه السلام ، ففتح عينه ، ورآهم ، وتنحنح . فعرفوا صوته ، فهربوا منه » [3].

* * *

---

(1) « السياسة والحيلة عند العرب » ، ص : 91 . «إحياء علوم الدين » ، م3 ، ص : 129.

(2) علي حسب الله ، «أصول التشريع الإسلامي » ، ص 323.

(3) « السياسة والحيلة عند العرب » ، ص : 90.

٧ - من حيل الخلفاء والأمراء

يحكى عن الخليفة العباسى المنصور أنه «أخرج مالا في الكوفة ، وقال: إدفعوا إلى كل رجل خمسة دراهم . فلما فعلوا ذلك ، علم عددهم . فقال : خذوا الآن من كل شخص أربعين درهما . فاجتمع له من ذلك مال عظيم »[١].

ومن ألطف ما روى عن الرشيد ، تلك الحيلة التى احتال بها على طبيبه بختيشوع ، فى المرض الذى توفى فيه . يقول صاحب كتاب « السياسة والحيلة عند العرب » : « لما دخل الرشيد ، طوس اشتدت علته ، وكان بختيشوع المتطبب يغدو ويروح ، ويعطيه الآمال الأباطيل ، ويمنيه الأمانى ، ويقول له : مرضك من هذا السفر . فدعا الرشيد يوما بالفضل، وقال : ائتنى برجل عاقل من التجار ، أشاوره في أمرى ، وأفضى إليه بسرى. فجاءه برجل من أهل طوس . فاستنطقه ، فرآه عاقلا ، فقال : تحفظ السر . قال : نعم . فخلا به ، وقال : خذ هذه القارورة (بها بوله) ، فائت بها جبريل بن بختيشوع ، وقل هى قارورة ابن لى ، فتأملها ، إن كان له حياة عرفنى ، وإن لم يكن له حياة فعرفنى . فذهب الرجل بالقارورة . فلما نظرها الطبيب ، أقبل على أبيه ، وقال: يا أبتى ، ما أشبه هذه بقارورة ذلك الرجل ، هذا ميت لا محالة . فرجع الرجل ، فأخبر الرشيد . فقال : ويلى عليه ، ابن الزانية . ومات بعده بثلاثة أيام »[٢].

---

(١) نفسه ، ص : ١١٠ وما بعدها .

(٢) نفسه ، ص :١١٣.

والواقع أنه لا يمكننا الحديث عن حيل الخلفاء والأمراء ، دون ذكر معاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، وهما أكثر العرب دهاء ، وأعظمهم حيلة ، وأشهرهم مكرا واحتيالا . ثم إن عمراً ومعاوية كانا يجمعهما ما يشبه الصداقة والإعجاب المتبادل . وكانت كراهيتهما لعلى بن أبى طالب متأصلة ، وعداوتهما له واضحة جلية . وكان على من أفصح العرب ، وكان جسورا شجاعا ، لا يخاف القتال ، ولا يخشى النزال . وكان عليه السلام أشجع من معاوية ، وأجرأ من عمرو ابن العاص بينما كان معاوية أكثر حيلة من علىّ ، وكان عمرو ابن العاص أدهى من الاثنين . ولولا دهاء عمرو ، لهلك معاوية وأصحابه يوم صفين [١] .

وقد أورد صاحب كتاب « السياسة والحيلة عند العرب » بعض الحيل المنسوبة إلى على بن أبى طالب ، نقتصر هنا على ذكر واحدة منها : « جاءت إليه امرأة ادعت أن زوجها عنين (ضعيف جنسيا) . فأنكر الزوج ذلك . فقال علىٌّ عليه السلام لقنبر : يا قنبر ، إذهب به إلى النهر ، وأنزله فيه إلى صرته ، وأوقفه ساعة ، وأخرجه . فإن رأيت ذكره تقلص ، وتقنفد ، فاعلمنى ، وإن لم يتغير ، فاعلمنى . فأخذه قنبر ، ومضى به إلى النهر ، وأنزل الرجل إلى صرته ، وأوقفه ساعة ،

---

(١) أنظر « تاريخ الطبرى » ، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩ ، م ٥ ، ص ٤٨ وما بعده . أنظر أيضا المسعودى ، « مروج الذهب » ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٧٣ ، م ٢ ، ص: ٤٠٠ وما بعدها .

وأطلعه ، وذكره قد تقلص ، وتقنفد ، فاخبر أمير المؤمنين بذلك . فقال للرجل : خذ زوجتك وانصرف ، فإنها كذابة »[1] .

وتحكى كتب التاريخ أن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، كان يتهم كلا من معاوية وعمرو في دينهما ، فيقول إنهما ليسا باصحاب دين ولا قرآن ، وإنه كان يعرفهما منذ طفولته ، وصاحبهما رجالا ، فكانا شر أطفال ، وشر رجال[2] . وليس هذا شيئا مستغربا ، فقد اتبع معاوية وعمرو كل الطرق الملتوية ، والوسائل الخادعة،للوصول إلى أهدافهما، وتحقيق مآربهما .

وقبل أن نتحدث عن العلاقة الغريبة ، والصلة العجيبة التي كانت تربط معاوية بعمرو ، يهمنا أولا أن نتوقف قليلا عند معاوية ، ونشأته. فمعاوية هذا قد نشأ وتربى في بيت ارستقراطى ، وكان أبوه أبو سفيان من أغنى أغنياء مكة ، وقد تزعم الحزب المعارض لرسول الله ﷺ فى مكة ، قبل أن يعتنق الإسلام . وكانت هند بنت عتبة ، أم معاوية ، من أشهر نساء قريش ، وأكثرهن فصاحة وعلما ،وقصة تدبيرها قتل حمزة ، عم الرسول ﷺ ، معروفة .وقد تميزت هند بفراسة عجيبة ،

---

(١) « السياسة والحيلة عند العرب » ص : ١٠٣ .

(٢) « مروج الذهب » ، م ٢ ، ص ٤٠١ . « تاريخ الطبرى » ، م٥ ، ص ٤٨ وما بعدها .

وشخصية قوية فريدة . ويخيل للمرء أحيانا أن معاوية ورث عنها من الصفات ، أكثر مما ورث عن أبيه أبى سفيان ، ولهذا كان عمرو بن العاص ينسبه أحيانا إلى أمه ، دون أبيه ، فيقول: ابن هند ، بدلا من معاوية بن أبى سفيان. ويحكى ابن عبد ربه فى «العقد الفريد » قصة زواج هند من أبى سفيان،فيذكر أن هند بنت عتبة كانت قد تزوجت الفاكه بن المغيرة ، أحد فتيان قريش . «وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس فيه ، بلا إذن . فكان يوما فى ذلك البيت ، وهند معه ، ثم خرج عنها، وتركها نائمة، فجاء بعض من كان يغشى البيت. فلما وجد المرأة نائمة ، ولى عنها، فاستقبله الفاكه بن المغيرة ، فدخل على هند وأنبهها . وقال : من هذا الخارج من عندك ؟ قالت:والله ، ما انتبهت،حتى أنبهتنى،وما رأيت أحدا قط، قال: الحقى بأبيك. وخاض الناس فى أمرهما»[(1)] . وبعد ذلك احتكما إلي بعض كهان اليمن ، فقال لها : «قومى غير رسحاء (غير قبيحة) ، ولا زانية ، وستلدين ملكا ، يسمى معاوية . فلما خرجت أخذ الفاكه بيدها ، فنثرت يده من يدها ، وقالت : والله ، لأحرصن أن يكون ذلك الولد من غيرك » . ثم إن سهيل بن عمرو وأبا سفيان تقدما بعد ذلك لخطبتها ، فسألت أباها عتبة عن صفات كل منهما ، حتى

---

(١) ابن عبد ربه ، «العقد الفريد » ، بيروت د.ت. ، م ٣ . ص:٢٢٤.

تختار لنفسها أشدهما موافقة لها . فلما وصفهما لها أبوها ، قالت عن سهيل بن عمرو إنه سيد مضياع للحرة ، وإنها إن انجبت منه ، فلن تنجب إلا الحمقى ، بينما أثنت على أبى سفيان ، وقبلته زوجا ، فولدت له معاوية ، وقبله يزيد ، وبعد ذلك « تزوج سهيل بن عمرو امرأة، فولدت له ولدا ، فبينما هو سائر معه،إذ نظر إلى رجل يركب ناقة (الأنثى من الجمال)، ويقود شاة (الواحدة من الضأن والمعز) ، فقال لأبيه : يا أبت، هذه إبنة هذه !! يريد الشاة ابنة الناقة . فقال أبوه : يرحم الله هندا!! يعنى ما كان من فراستها فيه »[١].

جاء فى « سراج الملوك » أن « دهاة العرب ستة : معاوية ابن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد ابن أبيه ، وقيس بن سعد بن عبادة ، وعبد الله بن بديل بن ورقاء . قال الأصمعى : كان معاوية يقول : أنا للأناة ، وعمرو للبديهة ، وزياد للصغار والكبار ، والمغيرة للأمر العظيم»[٢]. وقد كان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، على علم بحنكة عمرو ودهائه ، ومكر معاوية وحيلته ، فولاهما على بعض أمصار الشام . يقول ابن خلكان فى « وفيات الأعيان» : « كان عمر بن الخطاب قد ولى عمرو بن العاص ... فلسطين والأردن ، وولى معاوية دمشق وبعلبك والبلقاء ...ثم جمع

---

(١) نفسه ، م ٣ ، ص : ٢٢٥ .

(٢) « سراج الملوك» ، ص : ٢١٥ .

الشام كلها لمعاوية ، وكتب إلى عمرو ، فسار إلى مصر ، فافتتحها فى سنة عشرين للهجرة . فلم يزل واليا عليها ، حتى مات عمر ، فاقره عثمان عليها أربع سنوات ، ثم عزله ، وولى عبد الله بن سعد ، فاعتزل عمرو بن العاص فى ناحية فلسطين ... فلما قتل عثمان،سار إلى معاوية ، وشهد صفين معه ، وكان قد طلب من معاوية أنه إذا تم له الأمر ، يوليه مصر »[١] .

وكان عمر بن الخطاب يتندر فى أحاديثه بذكاء معاوية، ودهاء عمرو،فيقول:« تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما، وعندكم معاوية !! »[٢] . ويذكر صاحب « وفيات الأعيان » أن عمربن الخطاب كان « إذا استضعف رجلا فى رأيه ، قال : أشهد أن خالقك،وخالق عمرو واحد ، يريد خالق الأضداد»[٣] . وقد جاء فى « تاريخ الطبرى » أن عمر بن الخطاب ، لما خرج إلى الشام ، استقبله معاوية فى موكب ، ثم راح إليه فى موكب . « فقال له عمر : يا معاوية ، تروح فى موكب،وتغدو فى مثله، وبلغنى أنك تصبح فى منزلك، وذوو الحاجات ببابك ! فقال:يا أمير المؤمنين ، إن العدو بها قريب منا ، ولهم عيون وجواسيس ، فأردت ، يا أمير المؤمنين، أن يروا للإسلام عزا ، فقال له عمر:إن هذا لكيد رجل لبيب... فقال معاوية:يا أمير المؤمنين ، مرنى بما شئت ، أصر إليه .

---

(١) ابن خلكان ، « وفيات الأعيان » ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٧ ، م ٧ ، ص ٢١٤ .

(٢) « تاريخ الطبرى » ، م ٥ ، ص : ٣٣٠ .

(٣) « وفيات الأعيان » ، م ٧ ، ص : ٢١٥ .

قال : ويحك ! ما ناظرتك فى أمر أعيب عليك فيه ، إلا تركتنى ما أدرى آمرك ، أم انهاك »[1].

وكان معاوية حليما ، فخورا بدهائه وحيلته ، فقد جاء فى «سراج الملوك» : « أن سليمان مولى زياد فخر بزياد عند معاوية ، فقال معاوية : أسكت ، فما أدرك صاحبك بسيفه ، إلا أدركت أكثر منه بلساني »[2].

ولما كانت الحيلة تحتاج إلى عقل راجح ، ونظر ثاقب ، فقد كان معاوية يرفع من قدر العقل ، ويجلله . والواقع أن هذه سمة واضحة عند كل من عالج موضوع الحيل من الكتاب، فنحن نلاحظ أن معظم كتب الحيل تحتوى على فصل عن العقل وفضله . قال معاوية : «العقل والحلم أفضل ما أعطى العبد ، فإذا ذكّر ذكر ، وإذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر ، وإذا غضب كظم ، وإذا قدر غفر ، وإذا أساء استغفر ، وإذا وعد أنجز »[3] . وإذا كانت الحيلة تتطلب ذكاء حادا ، وذهنا متوقدا ، فهذا يتضمن أيضا سرعة البديهة ، فقد قالت الحكماء قديما : «آية العقل سرعة الفهم »[4]. وقد اشتهرت العرب منذ القدم بسرعة البديهة ، وحسن الارتجال . يقول

---

(١) «تاريخ الطبرى » ، م ٥ ، ص : ٣٣١ .

(٢) «سراج الملوك » ، ص : ٣٥٥ .

(٣) نفسه ، ص : ٢٥٩ . « تاريخ الطبرى » ، م ٥ ، ص: ٣٣٦ .

(٤) «سراج الملوك» ، ص : ٢١٣ .

الجاحظ فى «البيان والتبيين» : «... وكل شئ للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام . وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجالة فكر ولا استعانة ...»[1] . يحكى صاحب «سراج الملوك» عن سرعة بديهة بعض الصبيان العرب، فيقول : «قيل لبعض الصبيان : ألك أب ؟ قال: كأنى عيسى ابن مريم !!»[2]. ولم يكن معاوية دائما حاضر الفكر مع محدثيه ، سريع البديهة مع جلسائه ، فكان يفحم أصحابه أحيانا ، ويفحمونه هم أحيانا أخرى . يروى الطبرى أن معاوية نظر مرة إلى الثما فى عباءة ، فازدراه ، فقال له الثما: يا أمير المؤمنين ، إن العباءة لا تكلمك ، وإنما يكلمك من فيها »[3].

والواقع أن أعظم الشخصيات العربية ، وأكثرها فصاحة وعلما ، كثيرا ما كانت تواجه مواقف تعجز فيها عن إقناع الآخر ، أو إفحام الخصم ، ولنتذكر عمر بن الخطاب عندما قال: هزمتنى امرأة . ويحكى ابن قتيبة في « عيون الأخبار» واقعة طريفة حدثت لعائشة زوج رسول الله ﷺ ، وكانت رضى الله عنها من أفصح أزواج الرسول ﷺ ، وأكثرهن تفقها. يقول ابن قتيبة : «دخلت أم أفعى العبدية على عائشة

---

(١) الجاحظ ، «البيان والتبيين»، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٧٥ ، م٢ ، ص: ٢٨.

(٢) «سراج الملوك» ، ص : ٢١٣.

(٣) «تاريخ الطبرى » ، م ٥ ، ص : ٣٣٦.

رضى الله عنها ، فقالت : يا أم المؤمنين ، ما تقولين فى امرأة قتلت ابنا لها صغيرا ؟ قالت : وجبت لها النار قالت : فما تقولين فى امرأة قتلت من أولادها الأكابر عشرين ألفا (تعنى من سقط من القتلى فى موقعه الجمل التى قاتلت فيها عائشة ضد على بن أبى طالب)؟ قالت :خذوا بيد عدوة الله !!»(١) .

وواضح من الرواية أن محدثة عائشة قد أوقعتها فى مازق حرج، لم ينجدها منه فصاحتها، ولا سعة علمها ، فلما شعرت بالحرج والإفحام ، بادرت بطردها .

* * *

٨ - السياسة والحيلة

كانت العلاقة بين معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص ذات طبيعة فريدة ، وسمة غريبة . فقد كان عمرو يكبر معاوية بحوالى ٢٨ سنة ، حيث أنه مات سنة ٤٣ هجرية عن تسعين عاما ، بينما توفى معاوية سنة ٦١ هجرية عن ثمانين عاما . كانت تجمعهما صفات كثيرة ، وأخلاق عديدة، ويفرقهما التفاضل والتنافس ، فكان المكر والخديعة من صفاتهما ، والمراوغة والحيلة من أخلاقهما . وكان عمرو لا يتورع عن خداع معاوية ، ومعاوية لا يكف عن الاحتيال على عمرو . كانت تربطهما صلة إعجاب متبادل ، وتقدير متماثل. وكان التنافس بينهما حادا ، قد يصل أحيانا إلى حد

---

(٣) ابن قتيبة ، «عيون الأخبار» ، القاهرة ١٩٢٥ ، م ١ ، ج ١ ، ص: ٢٠٢.

التهديد بالقتل ، ودق الأعناق . وكان عمرو دائم التطاول على معاوية ، وكان معاوية حليما معه ،متسامحا . كان عمرو يستغل فارق السن الذى كان بينه وبين معاوية ، فيراوغ معاوية مراوغة الشيخ لتلميذه ، وكان معاوية ، بثقب نظره ، مدركا لدهاء عمرو ، مقربا له ، مستمعا إلى رأيه ، مستفيدا من حنكته . ومما رواه ابن قتيبة فى « عيون الأخبار » عن العلاقة بين الاثنين ، تلك الواقعة التى حدثت في عهد عمر بن الخطاب ، والتى صفع فيها عمرو معاوية صفعة مهينة . والغريب فى أمر عمرو بن العاص أنه حتى عندما يصفع ، فهو لا يصفع غضبا ، ولكن احتيالا ومكرا ، وهذا يوضح مدى عدم تورعه فى استخدام أى وسيلة ممكنة فى سبيل الوصول إلى غايته ، والخروج من المأزق الذى يقع فيه . يقول ابن قتيبة: «قدم معاوية من الشام ، وعمرو بن العاص من مصر ، على عمر ، فأقعدهما بين يديه ، وجعل يسألهما عن أعمالهما ، إلى أن اعترض عمرو فى حديث معاوية ، فقال له معاوية : أعلى تعيب ، وإلى تقصد ؟ هلم حتى أخبر أمير المؤمنين عن عملك ، وتخبره عن عملى . قال عمرو : فعلمت أنه بعملى أبصر منى بعمله ، وأن عمر لا يدع أول هذا الحديث ، حتى يأتى على آخره . فأردت أن أفعل شيئا أقطع به ذلك ، فرفعت يدى ، فلطمت معاوية . فقال عمر : تالله ، ما رأيت رجلا أسفه منك . يا معاوية الطمه ، فقال معاوية: إن لى أميرا لا أقضى الأمور دونه . فأرسل عمر إلى أبى

«سفيان ، فلما رآه ، ألقى له وسادة ، ثم قال معتذرا : قال رسول الله ﷺ : إذا أتاكم كريم قوم ، فاكرموه . ثم قص عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية . فقال : ألهذا بعثت إليّ ؟ أخوه وابن عمه ، وقد أتى غير كبير ، قد وهبت له ذلك »[1].

وكان عمر قد ولى عمرا على مصر ، بعد فتحها ، فصار واليا عليها ،حتى موت عمر ، ثم إن عثمان أقره على مصر أربع سنوات أخرى ، قبل أن يعزله ، فاعتزل عمرو بن العاص فى ناحية فلسطين ، حتى قتل عثمان ، فسار إلى معاوية ، وقررا معا أن يحاربا عليا ، كما تقدم الذكر . وفى المعركة الفاصلة ، موقعة «صفين » ، كان حزب على قد أوشك على إنهاء القتال لصالحه ، والقضاء على معاوية وعمرو وأتباعهما ، حتى انبثقت عن ذهن عمرو حيلة محبكة ، وخدعة محكمة، أنقذت معسكر معاوية من الهلاك ، وأنجته من الفناء ، حيث أمر أصحاب معاوية أن يرفعوا المصاحف على أسنة الرماح ، ويقولوا : هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم . فلما رأى جنود علي المصاحف قد رفعت على أسنة الرماح ، قالوا : «نجيب إلى كتاب الله عز وجل ، وننيب إليه »[2] ، وهكذا تمكن عمرو بفضل حيلته أن يوقف القتال فى اللحظة الحاسمة، فنجا هو ومعاوية وأتباعهما من الهلاك . وبعد ذلك

---

(١) نفسه ،م ١ ، ج١ ، ص : ٢٠٠ .

(٢) «مروج الذهب » ، م ٢ ، ص ٤٠٠ . « تاريخ الطبرى » ، م٥، ص ٤٨ .

واصل عمرو حبك مكايده، وإحكام حيله ، فكان وقت التحكيم ، حيث تزعم عمرو حزب معاوية ، وقاد أبو موسى الأشعرى أتباع على . وكان أبو موسى دون عمرو فى المكر والمراوغة ، فامسى طعما سهلا لدهاء عمرو وروغانه . وجعل عمرو يداهن أبا موسى ، ويحادثه حديثا يشبه حديث الثعلب لمالك الحزين ، قبل أن يدق عنقه ويلتهمه ، فى « كليلة ودمنة » . وقد استدرج عمرو أبا موسى فى الحديث ، حتى تمكن من أن ياخذ عليه كتابا بان عثمان قد قتل مظلوما، وأن لمعاوية الحق فى أن يطلب قاتل عثمان حيثما كان ، حتى يقتله ، أو يعجز عنه . وكانت خطة عمرو تقوم بعد ذلك على إثبات أن عليا هو قاتل عثمان ، حتى يحق لمعاوية أن يقاتل عليا . وفي الوقت نفسه كان أبو موسى يرمى إلى استخلاف عبد الله بن عمر ، الذى كان متزوجا من ابنته . فلما اقترح أبو موسى على عمرو خلع معاوية وعلىّ ، وتوليه عبد الله بن عمر وافقه عمر وعلى خلع على فقط دون معاوية . ثم إنه قد حدث بينهما سب ولعن ، فقال أبو موسى لعمرو : إن مثلك كمثل الحمار ، وقال عمرو لأبى موسى : إن مثلك كمثل الكلب !! وبعد أن تفرق الفريقان ، امتنع عمرو عن الذهاب إلى معاوية، لإبلاغه بما حدث . ويبدو أنه كان قد عقد العزم على الاستيلاء على السلطة ، وتنحية معاوية عن الحكم ، ولماذا لا، وهو الذى خدع عليا وأصحابه في صفين ، ثم احتال على أبى موسى الأشعرى فيما جرى من التحكيم ،

بينما كان دور معاوية فى هذه الفترة صغيرا ، غير مذكور .
ولم يلبث معاوية أن أدرك ما كان يجول بخاطر عمرو ، وما كانت تحدثه به نفسه من إقصاء معاوية عن السلطة ، والسيطرة على مقاليد الأمور بنفسه. ولم ينتظر معاوية طويلا، بل شرع يكيد لعمرو، ويراوغه .

يقول المسعودى فى « مروج الذهب » : «فلما انصرف أبو موسى ، انصرف عمرو بن العاص إلى منزله ، ولم يأت إلي معاوية، فأرسل إليه معاوية يدعوه ، فقال : إنما كنت أجيئك، إذ كانت لى إليك حاجة ، فأما إذا كانت الحاجة إلينا ، فأنت أحق أن تأتينا . فعلم معاوية ما قد دُفع إليه ، فخمر الرأى ، وأعمل الحيلة ، وأمر معاوية بطعام كثير ، فصنع . ثم دعا بخاصته ومواليه وأهله ، فقال : إنى سأغدو إلي عمرو ، فإذا دعوت بالطعام ، فدعوا مواليه ،وأهله ، فليجلسوا قبلكم. فإذا شبع رجل منهم وقام فليجلس رجل منكم مكانه . فإذا خرجوا ولم يبقَ في البيت أحد منهم ، فأغلقوا باب البيت ، واحذروا أن يدخل أحد منهم ، إلا أن آمركم . وغدا إليه معاوية ، وعمرو جالس فى فراشه ، فلم يقم له عنها ، ولا دعاه. فجاء معاوية ، وجلس علي الأرض ، واتكأ على ناحية الفراش ، وذلك أن عمرا كان يحدث نفسه أنه قد ملك الأمر،وإليه العقد ، يضعها فيمن يرى ، ويندب للخلافة من يشاء . فجرى بينهما كلام كثير ، وكان مما قاله له عمرو : هذا الكتاب الذى بينى وبينه عليه خاتمى وخاتمه ، وقد أقر بأن

عثمان قتل مظلوما ، وأخرج عليا من هذا الأمر ، وعرض على رجالا لم أرهم أهلا لها . وهذا الأمر إلى أن استخلف من شئته. وقد أعطانى أهل الشام عهودهمْ ومواثيقهم . فحادثه معاوية ساعة ، وأخرجه عما كانوا عليه، وضاحكه وداعبه (كما يداعب الذئب فريسته قبل أن يلتهمها!!)، ثم قال : يا أبا عبد الله ، هل من غذاء ؟ قال : إما شئ يشبع من ترى فلا والله . فقال معاوية : هلم يا غلامى غذاءك . فجئ بالطعام المستعد ، فوضع .فقال : يا أبا عبد الله، ادع مواليك وأهلك ، فدعاهم . ثم قال له عمرو : وادع أنت أصحابك . قال : نعم يأكل أصحابك أولا ، ثم يجلس هؤلاء بعدُ ، فجعلوا كلما قام رجل من حاشية عمرو ، قعد موضعه رجل من حاشية معاوية، حتى خرج أصحاب عمرو ، وبقى أصحاب معاوية . فقام الذى وكله بغلق الباب ، فاغلق الباب، فقال له عمرو : فعلتها. فقال : أى والله ، بينى وبينك أمران ، فاختر أيهما شئت : البيعة لى ، أو أقتلك ، ليس والله غيرهما. قال عمرو: فاذن لغلامى وردان ، حتى أشاوره ، وأنظر رايه . قال : لا تراه والله ، ولا يراك ، إلا قتيلا ، أو على ما قلت لك . قال : فالوفاء إذن بطعمة مصر . قال : هى لك ما عشت. فاستوثق كل واحد منهما من صاحبه ، وأحضر معاوية الخواص من أهل الشام ، ومنع أن يدخل معهم أحد من حاشية عمرو ، فقال لهم عمرو : قد رأيت أن أبايع معاوية ، فلم أر أحدا أقوى على هذا الأمر منه . فبايعه أهل الشام ، وانصرف معاوية إلى

منزله خليفة »[1] . ما أشبه هذه الواقعة بالصراع بين الذئاب والثعالب ، تراوغ الثعالب وتمكر الذئاب. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل استمر عمرو ، بعد أن تولى حكم مصر مرة ثانية ، في كيده لمعاوية ،ودوام معاوية على مكره بعمرو .

وترينا الرواية التالية كيف كان معاوية يفطن إلى مكايد عمرو فى اللحظة الحاسمة ، والوقت المناسب ، فيحبك له من الحيل ما يدفع به مكائد عمرو وشروره عن نفسه . وقد أقدمنا الذكر أن عمرا كثيرا ماكان ينسب معاوية إلى أمه هند ، وسنرى الآن كيف أن معاوية كان يسمى عمرا « ابن النابغة » . يقول الطبرى فى تاريخه : «حدثنى عبد الله بن أحمد ... قال : أخبرت أن عمرو بن العاص وفد إلى معاوية ومعه أهل مصر ، فقال لهم عمرو : انظروا ، إذا دخلتم على ابن هند ، فلا تسلموا عليه بالخلافة ، فإنه أعظم لكم في عينه ، وصغروه ما استطعتم . فلما قدموا عليه ، قال معاوية لحجابه : إنى كانى أعرف ابن النابغة وقد صغر أمرى عند القوم ، فانظروا إذا دخل الوفد ، فتعتعوهم (أتعبوهم وأزعجوهم) أشد تعتعة تقدرون عليها ، فلا يبلغنى الرجل منهم ، إلا وقد همته نفسه بالتلف . فكان أول من دخل عليه رجل من أهل مصر يقال له ابن الخياط ، فدخل وقد تعتع ، فقال : السلام عليك يا رسول الله !! فتتابع القوم على ذلك ، فلما خرجوا ، قال لهم عمرو : لعنكم الله !! نهيتكم أن تسلموا عليه بالإمارة ، فسلمتم عليه بالنبوة !!»[2] .

(١) « مروج الذهب » ، م ٢ ، ص ٤١١ وما بعدها .

(٢) « تاريخ الطبرى » ، م ٥ ، ص : ٣٣٠ وما بعدها .

ويقودنا الحديث عن معاوية وعمرو إلى الخوض في مسألة الشجاعة والإقدام ، وأين ينتهى حد الشجاعة ،وتبدأ حدود التهور ، ومتى يوصف الإنسان بالجبن دون الشجاعة . وإذا قارنا عليا بعمرو ومعاوية ، سنلاحظ لا محالة أن صفة الشجاعة هى الغالبة عند على ، دون المخادعة والروغان ، فى حين أن معاوية كان حذرا مكارا ، وكان عمرو مخادعا محتالا . يحكى المسعودى فى « مروج الذهب » أن عليا قد دعا معاوية إلى المبارزة فى أيام صفين ، فلم يقبل معاوية هذا العرض ، لما عرفه من شجاعة على . يقول المسعودى : « (...) ثم نادى على : يا معاوية ، علام يقتل الناس بينى وبينك؟ هلم أحاكمك إلي الله ، فأينا قتل صاحبه ، استقامت له الأمور. فقال له عمرو : لقد أنصفك الرجل. فقال له معاوية : ما أنصفت ، وإنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط ، إلا قتله ، أو أسره ، فقال له عمرو : وما يجمل بك إلا مبارزته . فقال له معاوية : طمعت فيها بعدى، وحقدها عليه »[1]

ويحكى المسعودى بعد ذلك أن معاوية أقنع عمرا بمبارزة على « فلم يجد عمرو من ذلك بدا ، فبرز. فلما التقيا ، عرفه على ، وشال سيفه ليضربه به . فكشف عمرو عن عورته ، وقال : مكره أخوك ، لا بطل . فحول على وجهه عنه ، وقال: قبحت !! ورجع عمرو إلى مصافه »[2].

(١) « مروج الذهب » . م ٢ ، ص : ٣٩٦ وما بعده . « تاريخ الطبرى » ، م ٥ ، ص: ٤٢ .

(٢) « مروج الذهب » ، م٢ ، ص: ٣٩٧ .

ويبدو أن مسألة الشجاعة والجبن ، وعلاقتهما بالحذر والحزم كانت موضوع نقاش وجدل بين معاوية وعمرو . يحكى المسعودى أن عمرو بن العاص قال ذات يوم لمعاوية : «قد أعيانى أن أعلم أجبان أنت ، أم شجاع ، لأنى أراك تتقدم،حتى أقول أراد القتال ، ثم تتأخر ، حتى أقول أراد الفرار. فقال له معاوية : والله ما أتقدم ، حتى أرى التقدم غنما، ولا أتأخر حتى أرى التأخر حزما »[1]. وقد يكون هذا السلوك الحذر قد نفع معاوية ، وأنجاه من القتل ، عندما اجتمع ثلاثة من الخوارج ، وعقدوا العزم على قتل على ومعاوية وعمرو . فتمكن ابن مُلجم من ضرب على بسيفه ضربة مات منها بعدها بثلاثة أيام . أما البرك الصريمى ، الموكل بقتل معاوية ، فإنه لم ينجح فى مهمته هذه ، فطعن معاوية بخنجره فى أليته ، فأصابه إصابة خفيفة ، دون أن يتمكن من قتله . أما الخارجى الثالث ، فانطلق إلي عمرو بن العاص ، يريد قتله ، وقد حدث فى ذلك اليوم ما يشبه المعجزة . ذلك أن عمرا قد شعر فى ذلك اليوم ببعض الألم فى بطنه ، فطلب من خارجة ، قاضى مصر ، أن يصلى بالناس ، وتخلف هو عن الصلاة ، فلما جاء الخارجى ليقتل عمرا ، قتل خارجه ، دون أن يدرى أنه لم يقتل عمرا ، ولكن شخصا آخر . وتحكى بعض الروايات أن عمرا قال فى تلك الواقعة أن بطنه لم تنفعه فى حياته، إلا فى ذلك اليوم[2] .

---

(١) نفسه ، م ٣ ، ص: ٢٧ .

(٢) نفسه،م٢ص ٤٢٧ ومابعده. «تاريخ الطبرى»،م٥،ص: ١٤٩ .

وقبل أن نختتم الحديث عن حيل الخلفاء والأمراء ، نود أن نشير إلي رواية مشهورة فى التراث العربى ، تمثل منذ قرون طويلة مبدأ سياسيا أصيلا ، كثيرا ما أخذ به أعداء العرب والمسلمين ، دون أن يعمل به العرب والمسلمون . يقول هذا المبدأ السياسى إن أعداءك إذا تصارعوا وتقاتلوا فيما بينهم، فعليك ألا تتدخل فى هذا القتال ، حتي لا تجعلهم ينسون صراعهم ويوحدون قواهم ، ويتجهون إلي محاربتك والقضاء عليك . يقول الطرطوشى فى «سراج الملوك» : «...لما مات بعض الخلفاء ، احتشدت الروم ، واجتمعت ملوكها ، وقالوا: الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض ، فتمكننا الغرة منهم ، والوثبة عليهم . وضربوا فى ذلك مشاورات ، وتراجعوا فيه بالمناظرات ، وأجمعوا على أنها فرصة الدهر ، وثغرة النحر . وكان رجل من ذوى الرأى منهم والمعرفة غائبا عنهم ، فقالوا : من الحزم عرض الرأى عليه . فلما أخبروه بما اجتمعوا عليه ، قال : لا أرى ذلك صوابا . فسألوه عن علة ذلك ، فقال : غدا أخبركم ، إن شاء الله . فلما أصبحوا ، غدوا إليه ، فقالوا : الوعد. قال : نعم . فأمر بإحضار كلبين عظيمين ، قد أعدهما. ثم حرش بينهما ، وألب كل واحد على الآخر ، فتواثبا ، وتهارشا ، حتى سالت دماؤهما . فلما بلغا الغاية ، فتح بابا عنده ، وأرسل منه على الكلاب ذئبا قد أعده . فلما أبصرته الكلاب ، تركا ما كانا عليه ، وتألفت قلوبهما، ووثبا جميعا على الذئب ، فنالا منه ما أحبا . ثم أقبل الرجل على

أهل الجمع ، فقال لهم : مثلكم مع المسلمين ، مثل هذا الذئب مع الكلاب ، لا يزال الهرج والمرج بينهم ، ما لم يظهر لهم عدو من غيرهم . فإذا ظهر لهم عدو من غيرهم ، تركوا العداوة بينهم وتألفوا على العدو . فاستحسنوا قوله ، وتفرقوا عن رأيهم »[1].

* * *

٩ - الحيل الهندسية

ذكرنا في مقدمة هذا البحث أن لفظ الحيل كان يطلق قديما على علم مستقل بذاته يعادل في عصرنا هذا علم الهندسة الميكانيكية والتجهيزات الهيدروليكية ، وأشرنا إلي تقسيم الخوارزمى علم الحيل إلي فرعين : الأول جر الأثقال بالقوة اليسيرة وآلاته ، والثانى حيل حركات الماء ، وصنعة الأوانى العجيبة ، وما يتصل بها من صنعة الآلات المتحركة بذاتها . ونجد عند الأنصارى تقسيما آخر لعلم الحيل . يقول حميد مورانى فى « تاريخ العلوم عند العرب » : « نجد عند الأنصارى أسماء أقسام علم الحيل وهى : علم العقود ، علم المرايا المحرقة ، علم مراكز الأثقال ، علم الجر ، علم المنجنيق »[2]. ثم يشير بعد ذلك إلى أن المنجنيق كان يعد

---

(١) « سراج الملوك » ، ص : ٢١٥ . « عيون الأخبار » ، م١ ، ج١ ، ص:١١٦.

(٢) حميد مورانى ، « تاريخ العلوم عند العرب » ، ببيروت ١٩٧٩ ، ص ٦٥ . أنظر أيضا : عمر فروخ ، « تاريخ العلوم عدن العرب » ، ص ٢٢٥ وما بعدها ، وعمر كحالة ، « العلوم البحتة في العصور الإسلامية » ، دمشق ١٩٧٢ ، ص: ١١٦ وما بعدها .

أهم الآت الحرب ،» وهى آلة لرمى الحجارة إلى مسافات بعيدة» . وقد كانت صناعة الساعات داخلة فى نطاق علم الحيل ، وكان ابن يونس هو صاحب اختراع رقاص الساعة[1].

ويهمنا فى هذا السياق أن نشير إلى الإهمال الذى لاقاه تراثنا العلمى حتى الآن ، فنحن لم نعر هذا التراث ربع ما أعرنا تراثنا الأدبى والدينى من الاهتمام ، على الرغم من أن هذا التراث العلمي للعرب لا يقل أهمية عن تراثهم الأدبى والدينى ، فضلا على تاثيره الجلى على علماء الغرب فى مجال التكنولوجيا والطب والهندسة . وقد كان لبعض أساتذة الغرب فضل إحياء التراث العربى الخاص بعلم الحيل ، والتنبيه على أهمية دراسته ، ووضعه موضعه الصحيح من تاريخ العلوم الإنسانية . ونخص بالذكر هنا جورج سارتون ، وكارا دى فو ، ودونالد هيل ، وفيدمان ، وهاوسر . أما العلماء العرب المتهمون بكتب الحيل في التراث العربى ، فيأتى الأستاذ أحمد يوسف الحسن فى مقدمتهم .

يبدو أن أقدم عمل معروف باللغة العربية فى علم الحيل الهندسية هو الترجمة العربية لكتاب فيلون (عاش فى القرن

---

(١) حميد مورانى ، ص: ٦٥ . أنظر أيضا : أحمد يوسف الحسن، مقدمة «كتاب الجامع بين العلم والعمل النافع فى صناعة الحيل» للجزرى ، جامعة حلب ، حلب ١٩٧٩ ، ص: ٤٩ وما بعدها ، وعمر كحالة ، «العلوم البحتة فى العصور الإسلامية» ، ص: ٢٢٠ .

الثالث قبل الميلاد) المعروف بـ «كتاب فيلون في الحيل الروحانية ومخانيق الماء». يقول فيلون فى مقدمة هذا الكتاب: «إنى علمت ، يا ارسطون الحبيب ، شوقك إلى معرفة الحيل اللطيفة. ولذلك أجبتك إلى ما سألتنى ، بوضع هذا الكتاب ، ليكون لك فى كل ما تطلب من الحيل . وإنى أبتدى أولا بصنعة الحيل الروحانية ، وأذكر كل صناعة معروفة لكل من سلف من الحكماء » [1] ، ويعتبر هذا الكتاب في غاية الأهمية بالنسبة لتاريخ التكنولوجيا ، والتحكم الآلى ، لأن تأثيره على العلماء العرب والمسلمين فيما بعد كان عظيما، مشهودا به ، وقد بحث ذلك المستشرق هيل فى دراساته المختلفة . بيد أن تأثير الحضارات القديمة ، وفى مقدمتها الحضارة المصرية ، على الحضارتين اليونانية والرومانية لم يدرس بعد بصورة كافية . ومن المرجح أن الحضارة المصرية قد كان لها أثر واضح ، وفضل جلى على فيلون مؤلف كتاب «الحيل الروحانية ومخانيق المياه» ، وخاصة أنه قد أورد اسم مصر فى أكثر من موضع فى كتابه . وقد قام المستشرق الفرنسى كارا دى فو بنشر هذا الكتاب ، مع ترجمة فرنسية ، سنة ١٩٠٣ . وكان قد نشر بحثا قيما عن الميكانيك فى الإسلام سنة ١٨٩١ . ويأتى بعد كتاب فيلون ، من حيث

---

(١) فيلون « كتاب الحيل الروحانية ومخانيق الماء » ، نشر كارا دى فو، باريس ١٩٠٣ ، ص: ١٧ .

الأهمية ، كتاب أيرن (عاش فى القرن الأول للميلاد فى الأسكندرية) المعروف بـ« الميكانيك » . وقد قام قسطا بن لوقا بترجمة هذا الكتاب إلى العربية ، وأشار سارتون إلى أن هذا العمل قد نشر وترجم إلى اللغات الأوروبية [١] .

أما الكتابات العربية فى علم الحيل ، فقد بدأها بنو موسى فى القرن الثالث الهجرى ، حيث ألفوا « كتاب الحيل » الذى يقول فيه ابن خلكان : « ولهم فى الحيل كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريبة . وقد وقفت عليه ، فوجدته من أحسن الكتب ، وأمتعها » [٢] . وفى القرن السادس الهجرى ألف بديع الزمان الجزرى كتابه المعروف « الجامع بين العلم والعمل النافع فى صناعة الحيل » . يقول العالم سارتون عن هذا الكتاب إنه : « أكثر الأعمال تفصيلا من نوعه ، ويمكن أعتباره الذروة فى هذا المجال بين الإنجازات الإسلامية » [٣] . وتميز الجزرى عن غيره من المهندسين أنه جمع بين الجانبين النظرى والعملى من هذا العلم ، وقد أراد أن يؤكد هذا من خلال كتابه الذى اختار له عنوان : « الجامع بين العلم والعمل

(١) أحمد يوسف الحسن ، مقدمة « كتاب الحيل » لبنى موسى ، جامعة حلب ١٩٨١ ، ص : ٥٨ .

(٢) « وفيات الأعيان » ، م٥ ، ص : ١٦٢ . أحمد يوسف الحسن ، مقدمة « كتاب الحيل » لبنى موسى ، ص : ٣١ .

(٣) أحمد يوسف الحسن ، مقدمة « كتاب الجامع بين العلم والعمل النافع فى صناعة الحيل » ص ٤٩ .

النافع». وفي القرن العاشر كتب تقى الدين بن معروف كتابين مشهورين فى علم الحيل ، الأول هو : «الطرق السنية فى الآلات الروحانية» ، والثانى : «كتاب الكواكب الدورية»[1].

وبالإضافة إلى هذه الكتب الثلاثة أشار المستشرق هيل فى مقال له بمجلة تاريخ العلوم إلى كتاب أندلسى فى علم الحيل للمرادى، يعود إلى القرن الخامس الهجرى [2]. أما عن الجهود الخاصة بنشر وإحياء هذا التراث الخاص بعلم الحيل ، فنبدأ بذكر المستشرق الفرنسى كارا دى فو الذى نشر كتاب فيلون «فى الحيل الروحانية ومخانيق الماء» ، مع ترجمة فرنسية، سنة ١٩٠٣، كما ذكرنا أعلاه . وفى الربع الأول من هذا القرن قام فيدمان وهاوسر بترجمة كتاب «الحيل» لبنى موسى إلى الألمانية . وفي سنة ١٩٧٤ ترجم المستشرق دونالد هيل كتاب الجزرى «الجامع بين العلم والعمل النافع فى صناعة الحيل» إلى اللغة الانجليزية ، ثم أتبع ذلك بترجمة انجليزية لكتاب «الحيل» لبنى موسى ، سنة ١٩٧٩. وكان الأستاذ أحمد يوسف الحسن هو العالم العربى الذى كرس جهوده لتحقيق ونشر كتب الحيل فى التراث العربى ، فقام سنة ١٩٧٦ بنشر كتاب «الطرق السنية فى الآلات الروحانية» لتقى

---

(١) أنظر هيل ، الترجمة الانجليزية ل «كتاب الحيل» لبنى موسى :
Donald R. Hill, The Book of Ingenious Devices, Dordrecht 1979, P . 251.

(٢) أنظر أحمد يوسف الحسن ، مقدمة «كتاب الحيل» لبنى موسى ، ص ٥٧ .

الدين، وبدع ذلك بثلاثة أعوام ، سنة ١٩٧٩ ، نشر النص العربى لكتاب «الجامع بين العلم والعمل النافع فى صناعة الحيل» للجزرى ، وواصل جهوده المشكورة فى هذا الميدان بنشره «كتاب الحيل» لبنى موسى سنة ١٩٨١ . وهناك علام عربى آخر اهتم بموضوع الحيل الهندسية فى التراث العربى ، وقام بتأليف كتاب عن هذا الموضوع ، وهو الأستاذ ماجد عبد الله شمس مؤلف كتاب «مقدمة لعلم الميكانيك فى الحضارة العربية»[١] .

ونكتفى هنا بالإشارة إلي مثلين من الحيل التى أوردها بنو موسى في كتابهم السالف الذكر ، أما الحيلة الأولى ، التى تمثل فى واقع الأمر مبدأ أو وسيلة هندسية ، فهى تسمح بصب سائلين مختلفين (الماء والشراب) فى نفس الإناء ، دون أن يمتزجا[٢] . والحيلة الثانية نستطع من خلالها «عمل آلة، يخرج بها الإنسان الأشياء التى تقع فى الآبار ، وتغرق فى الأنهار والبحار»[٣] .

ونختم حديثنا عن الحيل الهندسية والميكانيكية بذكر النقد الذى يوجهه بعض الباحثين إلي التكنولوجيا العربية القديمة بأن اهتمامها كان مركزا فى المقام الأول علي اللهو

---

(١) أنظر ماجد عبد الله شمس ، «مقدمة لعلم الميكانيك العربى» ، جامعة بغداد ، بغداد ١٩٧٧ .

(٢) مقدمة «كتاب الحيل» لبنى موسى ، ص ٦٤ .

(٣) أنظر «كتاب الحيل» لبنى موسى ، ص ٣٧٦ وما بعدها .

والتسلية . وقد أورد أحمد يوسف الحسن هذا النقد فى مقدمته لكتاب «الجامع بين العلم والعمل» للجزرى ، دون أن يحدد المصادر التى أخذ عنها . إلا أنه فى مقابل ذلك قام بالرد على هذا النقد ، ودحضه ، حيث يقول : «يوجه بعض المؤرخين والباحثين النقد للتكنولوجيا الميكانيكية العربية ، فهم يعيبون عليها اهتمامها ببعض الوسائل المخصصة للتسلية واللعب. ومع أن المهندسين العرب اهتموا بتصميم مثل هذه الوسائل لقيمتها الفنية والهندسية ، كما أنهم صنعوها للملوك والسلاطين ، ووصفوها فى رسائلهم وكتبهم، إلا أنه ليس صحيحا أيضا أن هذه الوسائل كانت فى مجملها مخصصة للتسلية ، ولتزيين القصور فقط . وإذا استعرضنا كتاب الجزرى بالذات ، فإننا نجد أن أهم أقسامه وأكبرها (النوع الأول) يبحث فى الساعات . وهناك قسم خاص بآلات رفع الماء (النوع الخامس) ، وقسم آخر (النوع السادس) خاص بوصف أشياء متعددة مفيدة كالأبواب والأقفال»[1] .

* * *

١٠- حيل الفقهاء والقضاة

ليس من قبيل الصدفة أن يكون أبو حنيفة (توفى سنة ١٥٠ هـ) وأتباعه هم مؤسسى باب الحيل فى الفقه الإسلامى ، وأصحاب الباع الطويل فى هذا الفن . فالحيلة ، سواء أكانت

---

(١) أنظر مقدمة كتاب «الجامع بين العلم والعمل النافع» ، ص ٤٩ وما بعدها .

فقهية أو غير فقهية ، تحتاج إلى بديهة سريعة ، وذكاء متوقد ، وعقل نشيط ، وكل هذا توفر لأبى حنيفة وأصحابه . وطالب الحيلة يعوزه ، فضلا عن ذلك ، شئ من خفة الروح ، والبعد عن التزمت ، والعقلية المتفتحة ، وكل هذا كان من صفات أبى حنيفة وأصحابه . والحيلة تحتاج إلى «الحذق ، وجودة النظر ، والقدرة على دقة التصرف» ، وقد أتقن أبو حنيفة وأصحابه كل هذه الخلال . كان أبو حنيفة ذا شخصية فريدة ، وعقلية فذة ، لا يملك المرء إلا الإعجاب بها ، وتجليلها . لم يكن متطرفا فى دينه ، ولا مغاليا فى مذهبه . فلم يمنعه تدينه من أن ياخذ نصيبه من الحياة الدنيا ، والتمتع بما حلل الله من طيبات ، فلم يحرم ، مثلا ، الغناء ، والاستماع إلي الموسيقى، كما يفعل اليوم أهل الجهل ، والمتشددون عندنا [١] . وهبه الله سرعة بديهة عجيبة ، وطرازا نادرا من التفكير العقلانى، وروح فكاهة معتدلة . وفوق هذا وذاك ، فقد كان رجلا عمليا، لا يميل إلى النظريات المحضة التى لا يمكن تطبيقها فى الحياة اليومية البسيطة ، وتنفر نفسه من كل ما ليس له صلة بالمعاملات اليومية للإنسان . ولما كان ذلك كذلك ، فقد كان طبيعيا أن ينفر أبو حنيفة من علم الكلام والفلسفة ، بعد أن قطع شوطا كبيرا فى تحصيلهما ، ويتجه إلى دراسة الفقه والشريعة [٢] .

---

(١) الدميرى ، «حياة الحيوان الكبرى » ، م١ ص ١٤٠ . ابن عبد ربه ، «العقد الفريد» ، م٣ ، ص ١٩٢ . انظر مهاجمة محمد الغزالى لأهل الجهل ممن يحرمون الغناء والاستماع ، فى : محمد الغزالى ، «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ٧١ وما بعدها .

(٢) أحمد أمين «ضحى الإسلام» ، بيروت د.ت ،م٢،ص : ١٧٩ .

ومن النوادر المروية عن سرعة بديهته ، وولعه بالقياس ، ما روى عنه «أنه أمر حجامه أن يلقط الشعر الأبيض من رأسه أو لحيته ، قال : إن لقطتها كثرت ، قال : إذن القط السود، حتى تكثر !!» [١] . ومن ألطف ما رواه الجاحظ عن أبى حنيفة في «كتاب الحيوان» تلك الرواية التى تدل على مدى إعجاب الناس بأبى حنيفة ، وتندرهم بثقب نظره ، وحدة ذكائه . يقول الجاحظ : «...كان رجل فى الجاهلية معه محجن (عصا فى طرفها انعقاف) يتناول به متاع الحاج سرقة، فإذا قيل له : سرقت ، قال : لم أسرق ، وإنما سرق محجنى !! فقال حماد : لو كان هذا اليوم حيا ، لكان من أصحاب أبى حنيفة !!» [٢] . وليس هذا تعليقا أريد به إلصاق اللصوص، ووصلهم بأبى حنيفة ، ولكنه كلام قيل على سبيل التندر على سرعة خاطر هذا الفقيه العظيم ، وحسن تصرفه عند المآزق .

أسس أبو حنيفة باب الحيل فى الفقه الإسلامى ، وسار من بعده أصحابه على نفس دربه . ولم يؤلف أبو حنيفة كتابا خاصا بالحيل الفقهية ، ولكن كتب الفقه الحنفية نقلت عنه ، ضمن ما نقلت ، الكثير من الحيل العجيبة ، والنوادر الطريفة .

---

(١) نفسه . م٢ . ص : ١٨٩ .

(٢) الجاحظ «كتاب الحيوان» ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٥ ، م٣ ، ص: ١٨ .

وقد قام أبو عبد الله محمد بن الحسن الشيبانى (توفى سنة ١٨٩ هـ) ، تلميذ أبى حنيفة النابغة الذى كان يجالسه وهو فى الرابعة عشرة من عمره [١]، بتاليف «كتاب المخارج في الحيل» ، فوضع بذلك أول عمل فقهى في فنون الحيل ، وقد اختلف النقاد فى نسبة هذا الكتاب للشيبانى ، فذهب بعضهم إلي القول بان هذا الكتاب هو من تاليف أبى حنيفة، برواية أبى يوسف ، وتهذيب الشيبانى ، وكان سزكين ممن وقعوا في هذا الخلط [٢] . والواقع أن المستشرق يوسف شاخت ، ناشر هذا الكتاب ، قد أثبت بما لا يدع مجالا للشك أن هذا الكتاب محال أن يكون من تاليف أبى حنيفة ، بل هو من تصنيف العلامة الشيبانى ، وبرهن على ذلك بحجج قاطعه ذكرها فى المقدمة الألمانية لهذا الكتاب [٣] .

---

(١) أنظر فؤاد سزكين ، «تاريخ التراث العربى» الأصل الألمانى :
Fuat Sezgin, Geschichte des arabischen Schrifttums, Leiden 1967, Bd. 1, S. 421.
الترجمة العربية بقلم محمود فهمى حجازى ، ومراجعة عرفة مصطفى وسعيد عبد الرحيم ، جامعة الإمام محمد بن سعود ، الرياض ١٩٨٣ ، المجلد الأول ، الجزء الثالث ، ص: ٥٤ وما بعدها.

(٢) أنظر سزكين ، الأصل الألمانى ، م١ ، ص: ٤٣١ . الترجمة العربية ، م١ ، ج٣ ، ص: ٧٣ .

(٣) أنظر شاخت ، مقدمة «كتاب المخارج فى الحيل» للشيبانى ، طبعة لايبتزج ١٩٣٠ .

وعلى الرغم من أن شاخت نشر هذا الكتاب ، وبرهن على صحة نسبته إلى الشيبانى سنة ١٩٣٠، فقد وقع سزكين فى هذا الخطأ ، ونسب كتاب الشيبانى لأبى حنيفة ، ولو أنه كلف نفسه الاطلاع على مقدمة شاخت لهذا الكتاب ، لما وقع فى هذا الخطأ ، وخاصة أنه نشر الجزء الخاص بالفقه من موسوعته «تاريخ التراث العربى» سنة ١٩٦٧ [١]. وفي القرن الثالث للهجرة ظهر فقيه حنفى آخر ، هو أبو بكر بن عمرو الشيبانى الخصاف (توفى سنة ٢٧١هـ) ، اهتم بالحيل وألف فيها «كتاب الحيل والمخارج».

هذا بالنسبة إلي موقف أبى حنيفة ، وأصحابه ، من الحيل ، وما هو معروف حتي الآن من مؤلفاتهم المطبوعة فى هذا الفن . أما أصحاب المذاهب الفقهية الأخرى ، المالكية والشافعية والحنبلية ، فقد حاربوا الحيل الفقهية وهى فى مهدها، وذموها ، وطعنوا فى شرعية استخدامها . فقد ذكر شاخت أن الشافعى (توفى سنة ٢٠٤ هـ) كان من أوائل المعارضين لاستعمال الحيل الفقهية، وخاصة بالطريقة التى يستخدمها بها أصحاب أبى حنيفة [٢].

---

(١) أنظر الهامش رقم ٨٧ أعلاه.

(٢) شاخت ، مقدمته ل «كتاب الحيل في الفقه» للقزوينى ، هانوفر ١٩٢٤.

وها هو ابن قيم الجوزية الحنبلي يشن في كتابه «اعلام الموقعين» هجوما عنيفا على الحيل واستخدامها [1]. وبعد ما يقرب من مائتي سنة على وفاة الشافعي ، ألف أبو حاتم محمود بن الحسن القزويني الشافعي (توفي سنة ٤٤٠هـ)[2] أول كتاب شافعي في الحيل الفقهية . هو «كتاب الحيل في الفقه» . فما الذى دفع أصحاب الشافعي إلى إقحام أنفسهم في هذا الفن الذى ذمه إمامهم ، وحاربه أتباعه الأولون؟ يشرح المستشرق يوسف شاخت خلفيات هذا التحول في الفكر الشافعي قائلا إن قيام أصحاب الشافعي بالتأليف في موضوع الحيل لم يظهر إلا متاخرا، ومثل بذلك نهجا جديدا في هذا المذهب . والواقع أن هذا التحول في الفكر الشافعي قد جاء كرد فعل على شهرة الكتابات الحنفية في موضوع الحيلْ، فاراد أصحاب الشافعي منافسة الحنفية في هذا الفن . وبعد أن هدأ الصراع بين الشافعية والحنفية ،بدأ أصحاب الشافعي يتجرؤون على معالجة موضوع الحيل ، والخوض فيه. وبعد ذلك يقارن شاخت بين حيل الحنفية ، كما جاءت في كتاب الخصاف ، وحيل الشافعية ، كما وردت في كتاب القزويني ، فيشير إلى أن الحيل الحنفية عملية ، والحيل

---

(١) أنظر ابن قيم الجوزية ..«اعلام الموقعين عن رب العالمين» ، تحقيق طه عبد الرءوف سعد ، بيروت د.ت.، ج٣،ص: ١٥٩ وما بعدها.

(٢) أنظر الحسيني ، «طبقات الشافعية» بيروت ١٩٧٩، ص: ١٤٥ وما بعدها . أنظر أيضا ابن عساكر «تبيين كذب المفترى» بيروت ١٩٨٣، ص: ٢٦٠.

الشافعية ليست كذلك . وتهدف الحيل الحنفية إلى تسهيل اتباع قواعد الدين والشريعة للمؤمن بقدر الإمكان ، فهى تجمع بين الجانبين العملى والنظرى من الدين ، بين المثالية والواقعية . أما حيل الشافعية ، فهى عمل متأخر ، فيه الكثير من التكلف ، ويخلو من الجانب العملى [1].

ولا ينبغى أن يفوتنا فى هذا المقام أن نذكر العلاقة المنطقية بين مدارس الفقه الإسلامى ، والمذاهب العقائدية . وهي علاقة منطقية من حيث أن اتباع المذهب العقائدى ينجذبون إلى ما يتفق مع فكرهم ، ولا يتعارض مع عقيدتهم، من اتجاهات الفقه. يقول الصفدى فى كتابه «الغيث المسجم»: «إن الغالب فى الحنفية معتزلة ، والغالب فى الشافعية أشاعرة ، والغالب فى المالكية قدرية ، والغالب فى الحنابلة حشوية» [2]. لقد جمع بين المعتزلة والحنفية صفات كثيرة ، وآراء متشابهة ، منها تجليل العقل ، والتوسع فى القياس ، والقول بالتحسين والتقبيح العقليين ، والتقليل من الاعتماد على الأحاديث ، بعدما كثر الوضع فيها ، فصعب التمييز بين الصحيح والموضوع منها [3]. ونود الآن أن نستعرض بعض نماذج لحيل الفقهاء ، والقضاة ، وعددا من الروايات المنقولة عن أبى حنيفة . أورد صاحب كتاب

---

(٢) شاخت،مقدمة« كتاب الحيل في الفقه »للقزوينى،مرجع سابق.

(٢) أنظر أحمد أمين ، «ضحى الإسلام» ، ج٣ ، ص:٧١.

(٣) أحمد أمين ، «ضحى الإسلام» ، م ٢ ، ص: ١٥٤ وما بعدها.

«السياسة والحيلة عند العرب» حيلة طريفة للقاضى يونان ، حيث يقول : «كان لبنى إسرائيل سوق يجتمعون فيها كل سنة، يبيعون ويشترون . فدخل السوق رجل على حجرة (أنثى الفرس) له، وخلفها مهر (ولد الفرس) . فسرقه رجل منه ، ورباه على بقرة له . فلما كان الموسم ، عاد صاحب المهر إلى السوق ، فنظر المهر ، فعرفه وقال : هذا مهرى ، ولد هذه الحجرة . فأنكر السارق ذلك . وترافعا إلى يونان القاضى ، والمهر يتبع البقرة ، والناس يتعجبون منه . فقصا عليه القصة ، فقال لهما : تعاليا غدا ، حتى أحكم بينكما ، فإنى اليوم حائض !! فقال صاحب البقرة : والرجال تحيض ؟ قال : نعم . مدينة تلد فيها بقرة مهرا ، ليس عجيبا أن يحيض فيها الرجال الذكور . ورد المهر إلى صاحبه ، فأخذه ومضى» (١) .

ومما نقله ابن قيم من حيل أبى حنيفة في كتابه «اعلام الموقعين» أن «رجلا أتاه بالليل ، فقال : أدركنى قبل الفجر ، وإلا طلقت امرأتى . قال : وما ذاك؟ قال : إن امرأتى تركت الليلة كلامى ، فقلت لها: إن طلع الفجر ، ولم تكلمينى ، فأنت طالق ثلاثا. وقد توسلت إليها بكل أمر أن تكلمنى ، فلم تفعل . فقال أبو حنيفة :إذهب ، فمر المؤذن أن ينزل ، فيؤذن قبل الفجر ، فلعلها إذا سمعته أن تكلمك ، واذهب إليها، فناشدها أن تكلمك قبل أن يؤذن . ففعل الرجل ،

(١) «السياسة والحيلة عند العرب » ، ص : ٢٠٣ وما بعدها .

وجعل يناشدها ، وأذن المؤذن ، فقالت له : طلع الفجر، وتخلصت منك!! فقال: بل كلمتنى قبل الفجر ، وتخلصت من اليمين!!»[١].

وذكر المكى فى «مناقب الإمام أبى حنيفة» العديد من الحيل الفقهية المنقولة عن أبى حنيفة ، أورد بعضها أحمد أمين فى الجزء الثانى من كتابه «ضحى الإسلام». من ذلك ما يحكى عن رجل حلف ليقربن امرأته نهارا فى رمضان ، ويذهب لأبى حنيفة ، باحثا عنده عن مخرج لهذا المأزق، فيفتيه أبو حنيفة أن يسافر بها ، فيحل له أن يقربها نهارا[٢].

ومن الحيل اللطيفة التى جاءت فى كتاب «السياسة والحيلة عند العرب» عن أبى حنيفة ، تلك الواقعة التى حدثت له مع أحد الأعراب فى الصحراء . يقول أبو حنيفة : «احتجت إلي ماء وأنا فى البادية . فاتى اعرابى ، ومعه قربة ماء . فابى أن يبيعها إلا بخمسة دراهم. فدفعت إليه خمسة دراهم، وقبضت القربة ، وقلت له : يا أخا العرب ، ما رأيك فى السويق ؟ قال: رأى حسن . فاعطيته سويقا متلوثا بزيت. فجعل ياكل ، حتى امتلأ . ثم بعد ساعة عطش عطشا شديدا، فطلب شربة من الماء . فقلت له : بخمسة دراهم . وكان الماء عنا بعيدا . فلما رأى أنه يتلف عطشا ، دفع لى

---

(١) ابن قيم ، «اعلام الموقعين» ، ج٤ ، ص: ١٦ .

(٢) أحمد أمين ، «ضحى الإسلام» ، م٢ ، ص:١٩١ وما بعدها.

بالخمسة دراهم ، وأسقيته شربة من القربة ، وبقى الباقى علىّ من القربة بلا ثمن »[1] .

وقد كانت معظم حيل الحنفية فى باب الأيمان والطلاق. ومن ذلك تلك الحيلة الشهيرة التى حكاها أحمد أمين عن المكى فى كتابه السالف الذكر ، حيث يقول :« (...) ويحلف رجل وقد رأى امرأته على السلم ، فيقول : أنت طالق ثلاثا إن صعدت ، وطالق ثلاثا إن نزلت . فيفتيه أبو حنيفة أن تقف المرأة على السلم ، ولا تصعد ولا تنزل، ويحتال جماعة يحملون السلم بالمرأة، فيضعونها على الأرض »[2]. ومن الحيل الطريفة التى أوردها صاحب كتاب « السياسة والحيلة عند العرب » تلك الحيلة التى حبكها شريح القاضى ، ليقتل ثعلبا ،حيث يقول : « . . .إن شريحا خرج أيام الطاعون إلى النجف ، وكان إذا خرج يصلى ، يجئ ثعلب، فيلعب بسجادته، وربما بال عليها ، فلا يقدر شريح أن يصلى. وبقى على ذلك مدة. فطال ذلك على شريح . فنزع قميصه ، فجعله على قصبة، وأسبل كميه، وجعل قلنسوته على القصبة، يشبهها به، كأنه قائم يصلى . واختفى فى موضع يمكنه منه صيد الثعلب فبينما هو كذلك إذا أتى الثعلب مستمرغا على السجادة ، والتف فيها . فوثب عليه شريح، فقبضه . فلذلك يقال : شريح أحيل من الثعلب »[3] .

---

(١) « السياسة والحيلة عند العرب » ، ص: ٢١٥ وما بعدها.

(٢) أحمد أمين ، « ضحى الإسلام » ، م٢ ، ص:١٩٢ .

(٣) « السياسة والحيلة عند العرب » ، ص: ١٩٩ .

ويهمنا فى هذا السياق أن نشير إلى دفاع الإمام محمد أبى زهرة عن الحيل الحنفية ، حيث يقول فى كتابه «أبو حنيفة»: «... ان الحيل عند أئمة المذهب الحنفى الأولين ، لم يقصدوا بها إسقاط تكليف، ولا العمل على أن تكون الأعمال تنطبق عليها الأحكام الشرعية فى ظاهرها، وفى معناها ونيتها تكون مناقضة لمقاصد الشريعة ، وهادمة للغاية السامية ، والحكمة من مشروعيتها»[1].

بقى أن نذكر جهود المستشرق يوسف شاخت ، وننوه بإسهاماته فى إصدار أهم كتب الحيل الفقهية ، بل وترجمته جزءا من هذه الكتب إلى اللغة الألمانية. ففى سنة ١٩٢٣ نال شاخت درجة الدكتوراه عن دراسته القيمة لكتاب «الحيل والمخارج» للخصاف. وقد أرفق شاخت بدراسته تلك النص الكامل لهذا الكتاب الذى كان قد طبع بمصر سنة ١٣١٤هـ. والعجيب فى هذا الأمر أن شاخت قد نشر رسالته هذه منسوخة بخط يده، دون أن يقوم بطباعتها ، أو كتابتها على الآلة الكاتبة . وبعد ذلك بعام واحد ، أى فى سنة ١٩٢٤ ، قام شاخت بنشر «كتاب الحيل» للقزوينى ، وأرفقه بترجمة ألمانية للنص العربى ، ومقدمة نقدية جيدة. وفى عام ١٩٣٠ أكمل شاخت جهوده هذه بنشر كتاب «المخارج فى الحيل»

---

(١) أبو زهرة ، «أبو حنيفة» ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص: ٤٢٧ .

للشيبانى ، وهو الكتاب المختلف على صحة نسبته إلى الشيبانى ، حيث برهن شاخت فى تقديمه لهذا الكتاب على صحة نسبته إلى الشيبانى ، موردا فى ذلك براهين دامغة ، وحججا قاطعة.

* * *

١١- الحيل الطبية

يفرق الرهاوى فى كتابه «أدب الطبيب» بين الحيل الطبية النافعة ، وخدع المحتالين الذين يتسمون باسم الطب . فالحيل الطبية يلجأ إليها الطبيب لعلاج مرضاه ، وتخفيف آلامهم . أما الخدع الطبية ، فهى وسيلة الدجالين للتكسب السريع، والاحتيال على الجهلة من المرضى وأصحاب العلل. ويثنى الرهاوى على الحيلة بشكل عام ، ويستحسن استعمالها، فيقول : «ليس غرضى فى هذا الباب ، أيها الحبيب ، ذم الحيلة على الإطلاق ، إذ كان معنى هذا الإسم إنما تلطف الإنسان بلطيف فطنة العقل فى إصابة ما بعد ، واعتاص عن عرضه (بعد عن نفسه) ، وبهذا المعنى ، طريق الحيلة، قدر الإنسان أن يستخرج دقيق العلوم والصنائع ، لأن الموجودات لم يكشفها البارئ تبارك بأسرها للإنسان ، لئلا تسقط عن الناس كلفة النظر والبحوث، ويذهب تفاضلهم بمعرفة العلوم والمهن ، فتسقط المراتب والرئاسات بذلك ، وهذا هو سلب نوع الإنسان ما به من شرف ، وإعدام حكمته التى بها فُضل على أنواع الحيوان. فلذلك جعل الله تعالى بعض

الأمور ظاهرة جلية، وبعضها خفية ، ليتوصل (الإنسان) بلطيف حيلة العقل ، وتدقيق ذهنه ، من الأمور الظاهرة إلى معرفة الأمور الباطنة ...(...) ألا ترى أن صناعة الطب لم يستخرج العلماء محاسن ما فيها من العلاج والأعمال إلا بطريق الحيلة كقدحهم للعين ، حتى يبصر من قد عمى ، وكبزلهم الماء ... وكاستخراجهم الأخلاط الرديئة المفسدة بأدوية معلومة ، وبتقدير معلوم ...»[1] . ويشبه الرهاوى المحتالين الداخلين على صناعة الطب بالذئاب المفترسة، لأنهم يسلكون طرق النصب والخديعة للوصول إلى كسب الأموال. والأخطر من ذلك أن الخدع التى يستخدمها هؤلاء المحتالون قد تؤدى إلى تدهور صحة من يعالجونه ،ووفاته.

وقد أشرنا فى مقدمة هذا البحث إلى الكتاب الذى ألفه جالينوس فى هذا الموضوع ، وأطلق عليه اسم «كتاب حيلة البرء». وقد لعبت الحيل الطبية دورا أساسيا فى علاج الأمراض النفسية وهو العلاج الذى يسمى أحيانا «العلاج بالوهم». من ذلك ما حكاه الرهاوى في «أدب الطبيب» عن جالينوس عندما دعى لعلاج مريض توهم أنه بلع حية !! حيث يقول: «وذلك أن جالينوس حكى أن إنسانا توهم أنه قد بلع حية، فعولج بكل دواء ، فلم ينجح فيه. فلما وقف جالينوس على خبره ، سأله: هل تعرف لون تلك الحية؟ فقال : هو اللون الفلانى ، ومقدارها المقدار الفلانى. فأمر سرا من العليل (أى

---

(١) الرهاوى ، «أدب الطبيب» ، ص: ٢٠٤.

بدون علم المريض) بمن صاد له حية بتلك الصورة. وأخفاها بلطيف الحيلة، وسقى المريض دواء قذفه، وشد عينيه حين اخذ يقذف، وسرح الحية المذكورة مع القذف. وأمر من حضر أن تعلو اصواتهم بالتباشير بخروج الحية بالقذف. فحين فض عن عينى المريض، قال: هذه هى الحية التى ابتلعتها بعينها، وقد وجدت الراحة، فبرئ بروءا تاما من توهمه »[1].

وقد سار كبار الأطباء العرب فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية على نهج جالينوس، واتبعوا طريقته فى علاج مرضى الوهم، بحيل وهمية طريفة. وقد نقل امين اسعد خير الله فى كتابه الممتاز « الطب العربى » حيلة لطيفة حبكها ابن سينا لعلاج مريض توهم أنه بقرة!! فيحكى، قائلا: «ويروى عن ابن سينا انه شفى مريضا كان يعتقد أنه بقرة، ويطلب بإلحاح ان يذبح، ويطبخ لحمه. ولما رفض اهله إجابة طلبه، انقطع عن الطعام، وضعف كثيرا، وأقلق الأهل والجيران باصواته المنكرة، وطلبه الملح. وقد عالجه عدة أطباء، ولم ينجحوا فى علاجه. فرجا أهله ابن سينا أن يعالجه. فارسل إليه يقول إنه قادم لذبحه، حسب طلبه، ويجب عليه أن يكون فرحا مسرورا. وبعد ايام حضر ابن سينا، وفى يده سكين طويلة، وأمر بربط يدى المريض ورجليه، وطرحه على الأرض، لأجل ذبحه. ولما هم ابن سينا بالذبح، جس

---

(١) نفسه، ص: ٢٠٩.

عضلات المريض جسا دقيقا، ثم التفت إلى أهله ، وقال لهم بصوت جهورى: إن البقرة ضعيفة جدا ، ويجب تسمينها قبل الذبح. فأخذ المريض من تلك الساعة يأكل بشهية ، فقوى جسمه، وتركه وهمه، وشفى تماما» [١].

ومن طرائف الحيل الوهمية المستخدمة فى علاج أمراض الوهم والماليخوليا ، ما حكاه ابن أبى أصيبعة فى موسوعته العظيمة «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» عن الطبيب أوحد الزمان أبى البركات هبة الله ، حيث يقول : «ومن نوادر أوحد الزمان فى المداواة أن مريضا ببغداد كان قد عرض له علة الماليخوليا، وكان يعتقد أن على رأسه دنا (وعاء كبيرا) ، وأنه لا يفارقه أبدا . فكان كلما مشى ، يتحايد المواضع التى سقوفها قصيرة ، ويمشى برفق ، ولا يترك أحدا يدنو منه ، حتى لا يميل الدن ، أو يقع عن رأسه. وبقى هذا المريض مدة ، وهو فى شدة منه . وعالجه جماعة من الأطباء ، ولم يحصل بمعالجتهم تأثير ينتفع به . وانتهى أمره إلى أوحد الزمان ، ففكر أنه ما بقى شئ يمكن أن يبرأ به ، إلا بالأمور الوهمية، فقال لأهله: إذا كنت فى الدار ، فأتونى به .، ثم أن أوحد الزمان أمر أحد غلمانه بأن ذلك المريض إذا دخل عليه ، وشرع فى الكلام معه ، وأشار إلى الغلام بعلامة بينهما ، أنه يسارع بخشبة كبيرة ، فيضرب بها فوق رأس المريض على بعد منه ،

---

(١) أمين أسعد خير الله ، «الطب العربى» ، ترجمة مصطفى أبو عز الدين ، بيروت ١٩٤٦ ، ص:١٢١ . أنظر أيضا حنيفة الخطيب، «الطب عند العرب» بيروت ١٩٨٦ ، ص: ٢٥٥ وما بعدها.

كأنه يريد كسر الدن الذى يزعم أنه على رأسه . وأوصى غلاما آخر وكان قد أعد معه دنا فى أعلى السطح ، أنه متى رأى ذلك الغلام قد ضرب فوق رأس صاحب الماليخوليا، أن يرمى الدن الذى عنده بسرعة إلى الأرض . ولما كان أوحد الزمان فى داره ، وأتاه المريض، شرع في الكلام معه ، وحادثه، وانكر عليه حمله الدن. وأشار إلى الغلام الذى عنده ، من غير علم المريض، فاقبل عليه، وقال : والله ، لابد لى أن أكسر هذا الدن، وأريحك منه. ثم أدار تلك الخشبة التى معه، وضرب بها فوق رأسه بنحو ذراع ، وعند ذلك رمى الغلام الآخر الدن من أعلى السطح ، فكانت له جلبة عظيمة وتكسر قطعا كثيرة . فلما عاين المريض ما فعل به، ورأى الدن المنكسر، تأوه لكسرهم إياه، ولم يشك أنه الذى كان على رأسه بزعمه، وأثر فيه الوهم أثرا برئ من علته تلك » (١) .

وقد تتخذ الحيلة أحيانا صورة النكتة الطريفة، أو الملحة النادرة ، مثل ما حكاه الرهاوى فى «أدب الطبيب»، حيث يقول :«ومن النوادر التى جرت لبعض الأطباء ببغداد مع بعض الناس، أنه جاء مريض إليه ، فشكا إليه أنه يجد مغصا. فسأله الطبيب: أى شئ أكلت؟ فقال : أكلت خبزا محترقا!! فاخرج الطبيب من حقيبته مكحلة ،وميل وتقدم ليكحله . فقال له : يا هذا ، وما الذى ينفع الكحل للمغص؟ قال: قصدى أعالج عينك. قال : عينى صحيحة ، لا علة بها. قال

---

(١) ابن أبى أصيبعة ، «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» ، بيروت د.ت. ،ص:٣٧٤ وما بعدها.

الطبيب : لو كان الأمر كما ذكرت ، لكنت حين رأيت الخبز محترقا ، لم تأكله»[1] ، وتبين هذه الواقعة مدى سخرية الطبيب من سلوك مريضه ، وجودة تصرفه بطريقة مقنعة ، وأسلوب تهكمى .

وتشبه هذه النادرة ما حكاه خير الله فى «الطب العربى» عن إفحام أحد الأطباء رئيس الخصيان فى عصر الحجاج ، حيث يقول : «أصيب الحجاج، حاكم العراق ، يوما بصداع شديد . فوصف له طبيبه أن يغسل قدميه فى الماء الحار ، ويدهنهما. فقال رئيس الخصيان الذى كان واقفا بجانب الحجاج: والله ما رأيت طبيبا أقل معرفة بالطب منك. شكى الأمير الصداع فى رأسه ، فتصف له دواء فى رجليه!! فقال له: أما علاقة ما قلت فيك بينة. فقال الخصى: وما هى ؟ قال: نزعت خصيتاك ، فذهب شعر لحيتك. فضحك الحجاج ومن حضر»[2].

وقد يجد الطبيب نفسه أحيانا ضحية لمرضاه ، وما أصابهم من أعراض . يحكى التركيتى فى كتابه «طرائف الأطباء» أن مريضا ذهب إلى طبيب نفسانى ، يشكوه من ضعف ذاكرته . فقال له : إن مشكلتى هى أننى سريع النسيان. فقال الطبيب: ومتى بدأت هذه المشكلة؟ فقال المريض: أى مشكلة؟!![3].

---

(١) الرهاوى ، «أدب الطبيب»، ص: ١٧٥ وما بعدها.

(٢) خير الله ، «الطب العربى» ، ص: ١٢٦ .

(٣) الحكيم راجي عباس التكريتى ، «طرائف الأطباء» ، بيروت ١٩٨٤ ، ص: ٣١٥.

وقد يضطر الطبيب في بعض الأحيان أن يحيك حيلة يختبر بها مدى قوة فهم مريضه ، ومقدرته علي التحصيل. يحكى الرهاوى فى «أدب الطبيب» عن طبيب أراد أن يمتحن فهم مريض جاءه يشكو من وجع كان به . «فأشار عليه بقرص يأخذ فى يومه ذلك نصفه ، وفى غده نصفه وبعد غده نصفه فسمع ذلك الإنسان قوله، ولم ينكر منه شيئا ، ومضى . فقال الطبيب : يا قوم كيف أشير على من لا يعلم أن القرص لا يجوز أن يكون له ثلاثة أنصاف ؟ »[1] .

وقد كان الخلفاء يقومون باختراع الحيل فى بعض الأوقات ، ليختبروا بها ذكاء مشاهير الأطباء ، من ذلك ما حكاه ابن أبى أصيبعة فى «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» عن حيلة هارون الرشيد لامتحان الطبيب بختيشوع ، حيث أمر الرشيد بإحضار بول دابة، وأعطاه لبختيشوع ، حتى يختبره: «...فمضى الخادم ، وأحضره قارورة الماء (بول الدابة) ، فلما رآه قال : يا أمير المؤمنين ، ليس هذا بول إنسان. قال له أبو قريش : كذبت، هذا ماء حظية الخليفة . فقال له بختيشوع : لك أقول ، أيها الشيخ الكريم ، لم يبل هذا إنسان البتة . وإن كان الأمر على ما قلت ، فلعلها صارت بهيمة. فقال له الخليفة : من أين علمت أنه ليس ببول إنسان؟ قال له بختيشوع : لأنه ليس له قوام بول الناس ، ولا لونه ، ولا ريحه. (...) ثم التفت الخليفة إلى بختيشوع ،

---

(١) الرهاوى ، «أدب الطبيب» ، ص: ١٧٥.

فقال له : ما ترى أن نطعم صاحب هذا الماء ؟ فقال: شعيرا جيدا !! فضحك الرشيد ضحكا شديدا ، وأمر ، فخلع عليه خلعة حسنة جليلة ، ووهب له مالا وافرا» (١) .

وقد يمرض المرء أحيانا لمجرد أنه ترك وطنه ، ورحل إلى بلد آخر يختلف فى طقسه ، وأهله ، وهوائه ، ومائه عن الوطن الأم ، فيصاب الإنسان بما يطلقون عليه مرض الحنين إلى الأوطان ، ليس فقط حنين النفس والروح ، بل أيضا الحنين إلى كل ما كان يأكله المرء ، ويشربه فى وطنه الأم. وعندئذ تكون أحد طرق العلاج المقترحة أن يلجأ المرء إلى تناول ما كان يأكله ، ويشربه فى بلده الأصلى ، فتسكن النفس، بهدوء المعدة ، وتعود إلى المرء حالته الطبيعية. يحكى ابن أبى أصيبعة أن عبيد الله بن المهدى ، والى مصر ، كان قد أهدى الرشيد جارية مصرية، في غاية الحسن والجمال . فلما رآها الرشيد، أعجب بجمالها ، وحسن هيئتها ،وأحبها حبا شديدا. ولكنها اعتلت بعد ذلك علة عجز أطباء بغداد أن يشفوها منها. فأرسل الرشيد يطلب طبيبا لها من مصر ، لأنه يكون أدرى بعلاجها من أطباء العراق . فبعث إليه عبيد الله ابن المهدى ببليطيان بطريك الاسكندرية ، وأعلمه بحب الرشيد لهذه الجارية ، ووصف له علتها ومرضها . فسافر بليطيان إلى بغداد، وأخذ معه من كعك مصر الخشن ،

---

(١) ابن أبى أصيبعة ، ص: ١٨٧. حنيفة الخطيب ، «الطب عند العرب»، ص: ٢٣٩ ومابعدها.

والسمك المملح. «فلما دخل بغداد ، وعرضت عليه الجارية أطعمها الكعك والصير (السمك المملح) ، فرجعت إلي طبعها ، وزالت عنها العلة ، ومنذ ذلك الوقت صار يجلب من مصر إلى دار الخلافة الكعك الخشن والصير »[1]. واعتمد الأطباء في علاجهم لبعض الأمراض على إثارة حياء المريض ، وتعمدوا إحراجه . من ذلك تلك الحيلة التى اتبعها ابن بختيشوع لعلاج جارية الرشيد التى أصيبت بالتشنج ، وهى تتمطى . يقول القفطى في كتابه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» : «وفي بعض الأيام تمطت حظية للرشيد ، ورفعت يدها ، فبقيت منبسطة ، لا يمكنها ردها . والأطباء يعالجونها بالتمريخ والادهان ، فلا ينفع ذاك شيئا . فقال الرشيد لجعفر ابن يحيى : قد بقيت هذه الصبية بعلتها . قال له جعفر : لى طبيب ماهر ، وهو ابن بختيشوع ، تدعوه وتخاطبه فى معنى هذا المرض ، فلعل عنده حيلة في علاجها . فأمر بإحضاره ، ولما حضر قال له الرشيد : ما اسمك ؟ قال : جبرائيل. قال : أى شئ تعرف من الطب؟ قال: أبرد الحار، وأسخن البارد، وأرطب اليابس ، وأجفف الرطب الخارج عن الطبع . فضحك الرشيد ،وقال : هذا غاية ما يحتاج إليه فى صناعة الطب. ثم شرح له حال الصبية. فقال جبرائيل: إن لم يسخط على أمير المؤمنين، فلها عندى حيلة . قال له الرشيد: ما هى؟ قال : تخرج الجارية إلى ههنا ، بحضرة الجميع، حتى أعمل ما

(١) حنيفة الخطيب ، «الطب عند العرب» ، ص: ٢٣٨.

أريده، وتمهل عليَّ ، ولا تعجل بالسخط . فامر الرشيد بإحضار الجارية، فخرجت. وحين رآها جبرائيل ، أسرع إليها، ونكس راسه، وامسك ذيلها ، كأنه يريد أن يكشفها . فانزعجت الجارية. ومن شدة الحياء والانزعاج ، استرسلت أعضاؤها ، وبسطت يدها إلى اسفل ، وامسكت ذيلها . فقال جبرائيل : قد برئت ، يا امير المؤمنين. فقال الرشيد للجارية: ابسطي يدك يمنة ويسرة . ففعلت . فعجب الرشيد ، وكل من كان حاضرا ، وأمر لجبرائيل في الوقت بخمسمائة ألف درهم ، وأحبه ، وجعله رئيسا علي جميع الأطباء» [1] .

وقد استخدم الأطباء قديما جس النبض كمقياس لحالة المريض ، ودليل علي ما لا يريد الإفصاح به للآخرين. وكانت هذه وسيلة معروفة لعلاج ما يصيب العشاق من أمراض نفسية، وعوارض جسدية . وقد أورد الرهاوى حادثة طريفة عن العلاج بجس النبض في كتابه «أدب الطبيب» ، حيث يقول : «وكذلك حكى عن أرسطراطس ، حين دعاه بعض ملوك الروم ، لعلاج ابنه ، ولم يكن له سواه . فنظر الفتى ، وجس عرقه ، ورأى ترتيب مجسته ترتيبا مستويا ، بانقباض وانبساط . فخمن ان المه فى نفسه ، لا في بدنه. فامر الطبيب بكراسى، جلس الملك والفتى والطبيب عليها . وأمر بإعراض

---

(١) خير الله ، «الطب العربى» ، ص: ١٢٠ وما بعدها . القفطى ، «إخبار العلماء باخبار الحكماء» ، بيروت د.ت.، ص: ٩٤. ابن أبى أصيبعة ، ص: ١٨٨ .

كل غلام وجارية في الدار عليهم ، ونبض الفتى فى يد الطبيب ، وهو لازم لترتيبه ، إلى أن مرت بعض الجوارى ، فتغيرت المجسة ، واضطربت ، وفسد الترتيب ، وارتعد الفتى ، وتغير لونه . فلما فطن الطبيب لذلك ، وعلم أنه عاشق لها، أمسك حتى انقضى المجلس . وسأل الطبيب عن تلك الجارية، فاخبر بانها حظية الملك التى لا يرى الدنيا إلا بها ، فانصرف ، ووعد الملك بالعود فى غد . فلم يعد ، كراهة أن يلقى الملك بذلك . فأحضره الملك، وسأله عن تأخره ، وقال له : أنت تعلم شغل قلبى بابنى ، وهو وارث الملك بعدى ، ومحله من نفسى . قال له الطبيب : تأخرت ، حتى وقفت على دائه . قال : وما هو؟ قال : عاشق لامرأتى . فاطرق الملك ، ثم قال للطبيب : فماذا ترى ؟ قال : الرأى للملك ، لا لى . قال : أرى أن تؤثرنى بها . قال له : أيها الملك ، وتستحسن هذا؟ فقال : نعم ، إن الملك يعوضك مكانها ، ويخلفها عليك ، ويعطيك أملك. فقال: إن كان الملك يرى هذا ويستحسنه ، فإن الفتى إنما هو عاشق جارية الملك. فأورد على الملك من ذلك أمرا عظيما . فاطرق الملك مفكرا طويلا . قال له الطبيب: أيد الله الملك ، إن من النساء عوضا ، وهن موجودات فى كل وقت ، وولده المجيب العاقل اللبيب ليس في كل دهر يتهيا ويوجد ، وليس منه عوض . فركن الملك إلى قوله ، وزوج الفتى جاريته ، فبرئ . فأمر الملك بحمل الطبيب على مركوب من مراكبه ، وساق إليه عدة من دوابه ، ووصله

بعشرة أرطال من الذهب ، وخلع سنية» [1]. وقد عالج ابن سينا عاشقا آخر بحيلة مشابهة لهذه الحيلة [2].

وتحكى كتب التاريخ أن الأطباء العرب قد عرفوا العلاج بالموسيقى ، فكتب ابن الهيثم عن تأثير الموسيقى فى الإنسان والحيوان [3] ، وقام الكندى بالتأليف فى الإيقاع الموسيقى، وحاول أن يعالج مرضاه بالموسيقى [4]. ويحكى عن الرازى «أنه كان يتردد على صديق له ، يشتغل صيدلانيا فى مستشفى بمدينة الرى . وكان من عادته حينما يجتمع بصديقه هذا أن يعاوده الحنين إلي الموسيقى ، فكان يعزف عنده بعض الوقت داخل المستشفى بقصد التسلية والطرب . ولشد ما كان دهشه حينما رأى المرضى ، وهم يعانون آلاما قاسية، يتركون أسرتهم ، ويلتفون حوله ، يستمعون بمرح وسرور إلى أنغامه الساحرة . وقد لاحظ الرازى أن بعض هؤلاء المرضى مصابون بأمراض تسبب لهم آلاما مبرحة ، وبالرغم من ذلك، فقد نسوا هذه الآلام، وشملهم الهدوء والسكون

---

(١) «أدب الطبيب » ، ص: ١٦٣ وما بعدها . ترجم المستشرق الألمانى يوحنا كريستوف بيرجب هذه الرواية إلى الألمانية فى كتابه :
J.C. Buergel, Allmacht and Maechtigkeit, Muenchen 1991, S. 171 f

(٢) حنيفة الخطيب ، «الطب عند العرب» ، ص: ٢٥٤ .

(٣) خير الله ، «الطب العربى» ، ص: ٩٩١ . ابن أبى أصيبعة ، ص: ٥٥٨ .

(٤) ابن أبى أصيبعة . ص: ٢٩٠ . حنيفة الخطيب ، «الطب عند العرب» ، ص: ٢٥٧ .

والسرور عندما سمعوا الألحان الشجية ، والنغمات المطربة »[1].

ومن الحيل الطبية التى ذاع صيتها قديما حيلة اللجوء إلى حشيشة السلحفاة التى قيل عنها أنها تستخدم فى خلب نفوس الأحباء ، وكسب محبتهم . يقول الجوبرى فى كتابه «المختار فى كشف الأسرار» : «ومنهم من يتكلم على حشيشة السلحفاة ، وأنها تنفع في المحبة والعطف وجلب القلوب. وقد كشفت عن هذه الحشيشة ، فوجدت لها فعلا عظيما فى هذا المعنى ، إلا أن هذه الحشيشة لا يقدر عليها ، إلا من رصد فحل السلحفاة حين هيجانه ، فإنه إذا هاج ، طلب الأنثى ، فإذا جاء إليها ، تمتنع منه وتدافعه . فإذا يئس منها ، ذهب إلى هذه الحشيشة ، وقطعها ، ثم أتى فوضعها على ظهرها . فإذا وضعها ، طاعت له ، ثم يرمى الحشيشة ، فإذا أخذها الذى قد رصدها ،فإنها نافعة . واعلم أنه لا يؤخذ من الحشيشة إلا فرد ورقة ، وهى التى يأخذها الفحل ، وما سواها ، فلا يساوى شيئا ... »[2]. ونكتفى بهذه المنتخبات من الحيل الطبية التى اخترناها من كتب القدماء ، ومؤلفات مورخى الطب العربى ، ومن أراد الاستزادة ، فليرجع إلى أعمال ابن أبى أصيبعة ، والقفطى ، وابن جلجل ، واسحاق ابن حنين ، وابن بطلان ، وابن رضوان ، وغيرهم من أطباء العرب ، وحكماء المسلمين .

* * *

---

(١) حنيفة الخطيب،«الطب عند العرب» ، ص: ٢٥٦ وما بعدها.

(٢) نفسه ، ص: ٣٣٢.

١٢- الخلاصة

الحيلة هى ثمرة العقل ، ووليدة الحذق ، وحصيلة جودة النظر وحسن التصرف ، وهى لذلك مستحسنة ، غير مستقبحة ، عند العقلاء ، وأهل العلم ، مذمومة ، غير مرغوب فيها ، عند أهل الجهل والجمود . وقد كان طبيعيا أن يمتدح أصحاب أبى حنيفة الحيلة ، ويستخدموها ، لأنهم كانوا من بين أصحاب المذاهب الفقهية الأخرى ، كالمعتزلة بين أصحاب المذاهب العقائدية المختلفة . ولم يكن مستغربا أن يتوسع الحنفية فى استعمال الحيل الفقهية ، لانهم توسعوا في القياس ، وآمنوا بالتحسين والتقبيح العقليين ، ورفعوا من قيمة العقل . ومن يرفع من قيمة العقل ، لابد أن يرفع من قدر الحيلة ، ويعرف قيمتها ، لأنها نتاج العقول ، وثمرة الذكاء . أما أعداء الحيلة ، فكانوا فى الغالب يقللون من قيمة العقل الذى هو أعظم مخلوقات الله تعالى .

وقوم لا يعرفون قيمة العقل ، ولا يعترفون بمحاسنه ، لابد أن يجهلوا مزايا الحيلة التى هى وليدة العقل ، ويعجزوا عن إدراك فضائلها ، والحيلة يقل استعمالها عند المتواكلين الذين لا يثبتون للإنسان أى فعل أو قدرة علي الفعل ، وينسبون الخير والشر إلي البارئ ، تعالى الله عن جهلهم تعاليا كبيرا . فالمتواكل يرفض استخدام عقله ، وإعمال فكره ، وهو بالتالى لا يعرف قدر الحيلة ، ومحاسنها . وقد هاجم الرهاوى

السلوك التواكلى عند بعض المرضى هجوما عنيفا . والحيلة فى السياسة لا تتفق مع الشدة والعنف والجعجعة الجوفاء ، بل إنها فى أحيان كثيرة تتعارض مع الشدة . وقد رأينا فى السطور السابقة كيف أن معاوية ، الذى كان يسمى الخليفة المداهن لحنكته وحيلته ، كان من أكثر العرب حلما وتسامحا وبعدا عن الشدة . واستخراج الحيلة يحتاج إلى عقل متفتح ، بعيد عن التزمت ، لا يقف عند ظاهر النصوص وحروفها ، بل يتعدى ذلك إلي المعانى المقصودة ، والمقاصد المنشودة. أصحاب الحيلة هم ، باختصار ، أصحاب العقل ، وأهل العلم. وأعداء الحيلة هم أهل الجهل ، وأصحاب الجمود.

* * *

ثبت المراجع

١- ابن أبى أصيبعة ، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجى ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، بيروت د.ت.

٢- ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر ، وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، ٨ مجلدات ، بيروت ١٩٧٧ .

٣- ابن عبد ربه ، شهاب الدين أحمد ، العقد الفريد ، ٣ مجلدات، بيروت د.ت.

٤- ابن عساكر ، أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله، تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى، بيروت ١٩٨٤ .

٥- ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم ، عيون الأخبار ، مجلدان ، القاهرة ١٩٢٥ .

٦- ابن قيم الجوزية ، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب ، اعلام الموقعين عن رب العالمين ، تحقيق طه عبد الرءوف سعد ، ٤ مجلدات، بيروت د.ت.

٧- ابن مسكويه ، أحمد بن محمد بن يعقوب ، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، تحقيق وشرح ابن الخطيب، القاهرة ١٣٩٨ هـ.

٨- نفسه،الحكمة الخالدة،تحقيق عبد الرحمن بدوى،القاهرة ١٩٥٢.

٩- ابن منظور ، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن على ابن أحمد بن أبى القاسم بن حبقة ، لسان العرب ، تحقيق عبد الله على الكبير ، ومحمد أحمد حسب الله ، وهاشم محمد الشاذلى ، ٦ مجلدات، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١ .

١٠- ابن النديم ، محمد بن اسحاق ، كتاب الفهرست، بيروت ١٩٧٨.

١١- أبو زهرة ، الإمام محمد ، أبو حنيفة : حياته وعصره، آراؤه وفقهه ، القاهرة ١٩٧٧.

١٢- أمين ، أحمد ، ضحى الإسلام ، ٣ أجزاء ،بيروت د.ت.

١٣- بنو موسى ، ابن شاكر ، كتاب الحيل ، تحقيق أحمد يوسف الحسن ، جامعة حلب ١٩٨١.

١٤- بيديا ، كليلة ودمنة ، ترجمة ابن المقفع ، بيروت د.ت.

١٥- بيرجل ، يوحنا كريستوف: Buergel, Johann Christoph, Allmacht und Maechtigkeit: Religion und Welt im Islam, Muenchen 1991.

١٦- Id., Untersuchungen zum aerztlichen Leben und Denken im arabischen Mittelalter, Goettingen 1969.

١٧- التكريتي، الحكيم راجي عباس ، طرائف الأطباء، بيروت ١٩٨٤.

١٨- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مجلدان ، القاهرة ١٩٧٥.

١٩- نفسه ، كتاب الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ٨ مجلدات ، القاهرة ١٩٦٩.

٢٠- الجزرى ، أبو العز بن اسماعيل بن الرزاز ، كتاب الجامع بين العلم والعمل النافع فى صناعة الحيل ، تحقيق أحمد يوسف الحسن ، جامعة حلب ١٩٧٩.

٢١- جولدتسيهر ، ايجناتس : Goldziher, Ignaz, Vorlesungen ueber den Islam, Heidelberg 1910.

الترجمة العربية بعنوان : العقيدة والشريعة فى الإسلام ، ترجمة :

محمد يوسف موسى ، وعبد العزيز عبد الحق ، وعلى حسن عبد القادر ، القاهرة ١٩٤٦ .

٢٢- حسب الله ، حسن ، أصول التشريع الإسلامى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥ .

٢٣- الحسن ، أحمد يوسف ، مقدمة كتاب الحيل لبنى موسى ، تحقيق احمد يوسف الحسن ، جامعة حلب ١٩٨١ .

٢٤- نفسه ، مقدمة كتاب الجامع بين العلم والعمل النافع فى صناعة الحيل للجزرى ، تحقيق أحمد يوسف الحسن، جامعة حلب ١٩٧٩ .

٢٥- الحسينى ، أبو بكر هداية الله ، طبقات الشافعية ، بيروت ١٩٨٢ .

٢٦- الخصاف ، أبو بكر أحمد بن عمرو بن مهير ، كتاب الحيل والمخارج ، تحقيق يوسف شاخت ، هانوفر ١٩٢٣ .

٢٧- الخطيب ، حنيفة ، الطب عند العرب ، بيروت ١٩٨٦ .

٢٨- الخوارزمى ، محمد بن أحمد بن يوسف ابو عبد الله ،مفاتيح العلوم ، القاهرة ١٣٤٢ هـ.

٢٩- خير الله ، أمين أسعد ، الطب العربى ، ترجمة مصطفى أبو عز الدين ، بيروت ١٩٤٦ هـ.

٣٠- الدميرى ، كمال الدين ، حياة الحيوان الكبرى ، مجلدان بيروت د.ت.

٣١- الرهاوى ، اسحاق بن على ، أدب الطبيب ، مخطوطة نشرها فؤاد سزكين بالتصوير ، فرانكفورت ١٩٨٥ .

٣٢- سزكين ، فؤاد : Sezgin, Fuat, Geschichte des arabischen Schrifttums, Leiden 1967, Bd. 1.

الترجمة العربية بعنوان : تاريخ التراث العربى ، المجلد الأول، الجزء الثالث ، ترجمة : محمود فهمى حجازى ، ومراجعة عرفة مصطفى وسعيد عبد الرحيم ، جامعة الإمام محمد بن سعود ، الرياض ١٩٨٣ .

٣٣- شاخت ، يوسف ، مقدمة كتاب الحيل فى الفقه للقزوينى ، تحقيق يوسف شاخت ، لايبتزج ١٩٢٤ .
٣٤- نفسه ، مقدمة كتاب الحيل والمخارج للخصاف ، تحقيق يوسف شاخت ، هانوفر ١٩٢٣ .
٣٥- نفسه ، مقدمة كتاب المخارج فى الحيل ، تحقيق يوسف شاخت، لايبتزج ١٩٣٠ .
٣٦- شمس ، ماجد عبد الله ، مقدمة لعلم الميكانيك فى الحضارة العربية ، بغداد ١٩٧٧ .
٣٧- الشيبانى ، محمد بن الحسن ، كتاب المخارج في الحيل ، تحقيق يوسف شاخت ، لا يبتزج ١٩٣٠ .
٣٨- الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ١١ مجلد ، القاهرة ١٩٧٩.
٣٩- الطرطوشى ، محمد بن الوليد ، سراج الملوك ، تحقيق جعفر البياتى ، لندن ١٩٩٠ .
٤٠- الغزالى ، أبو حامد محمد بن محمد ، إحياء علوم الدين، ٥مجلدات ، القاهرة د.ت.
٤١- الغزالى ، محمد ، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، القاهرة ١٩٩١ .
٤٢- فروخ ، عمر ، تاريخ العلوم عند العرب ، بيروت ١٩٨٤ .
٤٣- فيلون البيزنطى ، كتاب فيلون فى الحيل الروحانية ومخانيق الماء ، تحقيق كارا دى فو ، باريس ١٩٠٣ .
٤٤- القزوينى ، أبو حاتم محمود بن الحسن بن محمد بن يوسف ابن الحسن بن محمد بن عكرمة ابن انس ابن مالك الأنصارى ، كتاب الحيل فى الفقه ، تحقيق يوسف شاخت ، هانوفر ١٩٢٤ .

٤٥- القفطى ، جمال الدين أبو الحسن على بن القاضى الأشرف يوسف ، إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، بيروت د.ت.

٤٦- كحالة ، عمر رضا ، العلوم البحتة فى العصور الإسلامية ، دمشق ١٩٧٢.

٤٧- الماوردى ، أبو الحسن على بن محمد بن حبيب ، تسهيل النظر وتعجيل الظفر فى أخلاق الملك وسياسة الملك ، تحقيق رضوان السيد ، بيروت ١٩٨٧.

٤٨- نفسه ، أدب الدنيا والدين ، تحقيق محمد صباح ، بيروت ١٩٨٧.

٤٩- المرادى ، أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمى القيروانى ، كتاب الإشارة إلى أدب الإمارة ، تحقيق رضوان السيد ، بيروت ١٩٨١.

٥٠- المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين بن على ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، ٤ مجلدات ، القاهرة ١٩٧٣.

٥١- نفسه ، التنبيه والإشراف ، بيروت ١٩٨١.

٥٢- مورانى ، حميد ، تاريخ العلوم عند العرب ، بيروت ١٩٨٩.

٥٣- مؤلف مجهول ، السياسة والحيلة عند العرب ، تحقيق رنيه خوام ، لندن ١٩٨٨.

٥٤- هيل ، دونالد : Hill, R.Donald, The Book of Ingenious Devices by the Banu (sons of) Musa bin Shakir, Dordrecht 1979.

* * *

الفهرس

رقم الايداع : ١٧٥٥٢ / ٩٨
الترقيم الدولى :.I.S.B.N
977-19-7815-2